

الإعجاز العلمي في السنة النبوية تعريفه وقواعده

إعداد

محمد بن عمر بن سالم بازمول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله، من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد: فهذه دراسة موجزة ، بعنوان:

الإعجاز العلمي في السنة النبوية

تعريفه وقواعده

قد قسمتها إلى مدخل ومقصدين وخاتمة، كالاتي:

مدخل : السنة وحي منزل من الله تعالى.

المقصد الأول : تعريف الإعجاز العلمي في السنة النبوية

المقصد الثاني : قواعد دراسة الإعجاز العلمي والطبي في السنة النبوية

الخاتمة وفيها أهم النتائج

والله أسأل أن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم، وداعية إلى سنة نبيه الرؤوف الرحيم، إنه سميع مجيب.

كتبه : محمد بن عمر بازمول

مكة المكرمة - ٧٢٦٩

مدخل السنة وحي منزل من الله تعالى.

السنة وحي أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ قال تبارك وتعالى: ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٣-٤).

والرسول ﷺ أوتي القرآن ومثله معه.

قال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ. أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ! أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبْعِ وَلَا لُقْطَةٌ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاءِهِ". أخرجه أبو داود.

ولفظ الترمذي: "أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الْحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَكَيٍّ عَلَى أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ. وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ"^(١). قال الدارمي رحمه الله: "يقول: أوتيت القرآن، وأوتيت مثله من السنن التي لم ينطق القرآن بنصه، وما هي إلا مفسرة لإرادة الله تعالى به"^(٢).

قال حسان بن عطية (أحد التابعين من ثقات الشاميين): "كان جبريل عليه السلام، يترّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة، كما يترّل عليه بالقرآن، يعلمه إياها، كما يعلمه القرآن" وفي لفظ عند ابن بطة: "كان جبريل يترّل على النبي ﷺ بالقرآن ومثله من السنة"^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، وسنده صحيح، وأخرجه الترمذي في كتاب العلم باب رقم ٦٠، وقال: حسن غريب. والحديث أخرجه أحمد في مسنده (١٣٠/٤) بنحو لفظ أبي داود، وفي (١٣٢/٤) بنحو لفظ الترمذي، وأخرجه ابن ماجة في المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (١٢)، بنحو لفظ الترمذي. وهو من حديث المقدم بن معد يكرب، رضي الله عنه. والحديث صححه الألباني في مختصر سنن ابن ماجة (٧/١)، وكذا محقق جامع الأصول (٢٨١/١).

(٢) نقله في الحجة في بيان المحجة (٢٩٧/٢).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١٤٥/١)، ونعيم بن حماد في زوائده على كتاب الزهد لابن المبارك تحت رقم (٩٠)، وابن نصر المروزي في كتاب السنة ص ٣٢-٣٣، تحت رقم (١٠٢)، ص ١١١، تحت رقم ٤٠٢، وابن بطة في الإبانة (١/٢٥٤) تحت رقم ٩٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٤٥-٣٤٦. والأثر صحح إسناده في فتح الباري (٢٩١/١٣)، وبدر البدر في تحقيقه لكتاب السيوطي "مفتاح الجنة" ص ٣٨.

قال العراقي رحمه الله: "وصف السنة بالإنزال صحيح؛ فقد كان يتزل بها كما يتزل بالقرآن، كما في الحديث الصحيح في الرجل الذي أحرم لعمره وهو متضمن بخلق، فتزل الوحي في ذلك بالسنة الثابتة من قوله: "ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عمرتك" (١)، الحديث المشهور. (٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب العمرة، باب يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج، حديث رقم (١٧٨٩)، ومسلم في كتاب الحج باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة، حديث رقم (١١٨٠). من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه. وانظر: جامع الأصول (٣/٣٩).
 (٢) طرح الشريب (١/١٥).

المقصد الأول

تعريف الإعجاز العلمي في السنة النبوية

ويشتمل على المطالب التالية:

المطلب الأول : تعريف إعجاز السنة النبوية.

المطلب الثاني : أنواع الإعجاز في السنة النبوية.

المطلب الثالث : العلم التجريبي و السنة النبوية.

وإليك البيان :

المطلب الأول

تعريف إعجاز السنة النبوية

(إعجاز السنة النبوية) علم مركب إضافي من كلمتين (إعجاز) (السنة).
والمركب يُبدأ عادة بتعريف أفراده، كل فرد على حدة، ثم تعريفه بإضافة أحدهما إلى الآخر.
وبناء على هذا سأبدأ بتعريف كلمة (إعجاز) ثم كلمة (السنة النبوية) ثم أعرف هذا العلم بإضافة
أفراده بعضها إلى بعض، فأقول مستعيناً بالله:

تعريف المعجزة في اللغة:

(المعجزة) اسم فاعل من (الإعجاز) و مادة العين والجيم والزاء، لها أصلان في اللغة :
أحدهما: الضعف. والآخر مؤخر الشيء.
والأصل الأول هو المقصود هنا، تقول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً، فهو عاجز، أي: ضعيف.
ومن هذا قولهم: العجز نقيض الحزم؛ لأنه يضعف رأيه.
ومنه قولهم: المرء يعجز لا محالة. يقال: أعجزني فلان، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.
ويقال: لن يُعجز الله تعالى شيء، أي: لا يعجز الله تعالى عنه متى شاء، وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّا
ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ (الحج: ١٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (العنكبوت: ٢٢).
وقل : عَجَزَ فلان عن كذا، و لا تقل : عَجَزَ؛ لأنه بالكسر للعجيزة إذا عظمت. وقيل بكسر
الجيم لغة في معنى الضعف^(١).

تعريف المعجزة في اصطلاح المتكلمين:

عرف الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) رحمه الله، المعجزة بأنها: "أمر خارق للعادة، داعية إلى
الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادّعى أنه رسول الله ﷺ" اهـ^(٢).

تعريف المعجزة عند أهل الحديث :

لم يستعمل أهل الحديث لفظة (معجزة) إنما استعملوا لفظة (دلائل)، و (علامات)، و (آيات)،
فتجد البخاري (ت ٢٥٦هـ) رحمه الله يعقد في كتابه الجامع الصحيح (باب علامات النبوة في

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٢٣٢)، بتصرف.

(٢) التعريفات ص ٢١٩. وقد ذكر التهانوي في كشف اصطلاحات الفنون (٣/٢٣٦-٢٣٩)، المعجزة وشروطها
عندهم.

الإسلام^(١)، وفي سنن الترمذي (ت ٢٧٩هـ) رحمه الله (باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ). وقد أفرد علماء الحديث هذا النوع من الحديث بمصنفات، سميت كتب "دلائل النبوة"، من ذلك دلائل النبوة للفريابي (ت ٣٠١هـ)^(٢)، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)^(٣)، و دلائل النبوة للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)^(٤).

ويلاحظ الأمور التالي :

١- أن تسمية هذا النوع بالمعجزة لم ترد في نصوص الشرع، إنما الذي ورد هو تسميته بالآية جمعها آيات وفي معناها العلامة جمعها علامات.

٢- أن ما اشترطه المتكلمون من كون المعجزة متحدى بها فيه نظر^(٥)؛ إذ يخرج جملة من ما تضمنته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مما لم يقع فيه التحدي، مع تضمنه لأمر هي من آيات صدقه ﷺ ودلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

٣- وكذا ما اشترطوه من كونها أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدي ودعوى النبوة؛ فإن هذا إنما هو من باب الوصف الكاشف، فلا مفهوم له لا طرداً ولا عكساً.

أما الفرد الثاني من أفراد العلم المركب (إعجاز السنة النبوية)؛ فهو كلمة (السنة) (السنة) في اللغة :

مادة (س، ن) تدور حول أصل واحد وهو جريان الشيء، وإطراده في سهولة. والأصل فيه قولهم: سننت الماء على وجهي أسنه سنناً إذا أرسلته إرسالاً. اشتق منه السنة بمعنى السيرة^(٦).

السنة عند المحدثين :

السنة المقصود بها ما أضيف إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو

(١) أما الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه فإنه رتب صحيحه ولم ييويه، وإنما صنع تبويباته الشراح، فما في صحيح مسلم في كتاب الفضائل (باب في معجزات النبي ﷺ)، فهذا التبويب من النووي وليس من مسلم.

(٢) مطبوع، بتحقيق عامر حسن صبري، دار حراء، مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

(٣) مطبوع، توزيع دار الباز، مكة، يبدو أنه مصور عن طبعة للكتاب عام ١٣٩٧هـ.

(٤) مطبوع، بتحقيق عبدالمعطي قلججي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

(٥) فلا يلزم من عدم التحدي عدم الآية والبرهان والدليل على صدقه ﷺ، فلا يدفع هذا الإيراد قول المهتممي في الفتاوى الحديثية ص ٣٠٨، من أن المراد بهذا الشرط في تعريف المعجزة إنما هو بالقوة أو الفعل، قال: "ولاشك أن كل ما وقع منه ﷺ بعد النبوة مقرون بالتحدي لأن قرائن أقواله وأحواله ناطقة بدعواه النبوة وتحديه للمخالفين وإظهاره مما يجمعهم ويحديهم فكان كل ما ظهر منه ﷺ يسمى آيات ومعجزات، وقوله ﷺ عند ظهور بعضهما: "أشهد أني رسول الله" شاهد صدق على ما ذكرته؛ فتأمله" اهـ.

(٦) معجم مقاييس اللغة (٣/٦٠-٦١).

خُلُقِيَّة^(١).

فالسنة عندهم: شمائل وسيرة، يشملها عندهم اسم الهدي العام الذي كان عليه النبي ﷺ^(٢).

فالسنة عندهم بمعنى الحديث.

وبهذا ننتهي من تعريف أفراد المركب الإضافي (إعجاز السنة)!

أمّا تعريف العلم بإضافة كل فرد من أفرادها إلى الآخر (إعجاز السنة) فإننا نستخلصه من تأمل تعريف شقي المركب فأقول:

تعريف إعجاز السنة النبوية : هو ما تضمنه حديث الرسول ﷺ من دلائل وآيات وعلامات على نبوته ﷺ وصدقه فيما بلغه عن ربه، مما يمنع أن يكون على يدي بشر لا يوحى إليه.

فهي تدل على أن هذا البشر موحى إليه من ربه، فهو نبي!

قال تبارك وتعالى : ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: ١١).

وقال تبارك وتعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

قال تبارك وتعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: ٦).

عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(٣).

فالوحي الذي أوحاه الله إليه تدخل فيه السنة، إذ هي وحي أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ قال تبارك وتعالى : ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٣-٤).

وقد تضمنت السنة النبوية آيات ودلائل على صدقه صلى الله عليه وسلم.

والمقصود هنا الأحاديث النبوية المتضمنة إخباراً يستلزم صدقه في نبوته.

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: "آيات الأنبياء كما قد عرف هي مستلزمة لثبوت النبوة

(١) مجموع الفتاوى (١٨/٦-١٠). وانظر رسالة "السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي والتعريف بحال سنن الدارقطني".

(٢) ومن هنا جاء اسم كتاب ابن قيم الجوزية: "زاد المعاد في هدي خير العباد".

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، حديث رقم (٤٩٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، حديث رقم (١٥٢).

وصدق المخبر بما والشاهد بما؛

فيلزم من وجودها وجود النبوة.

وصدق المخبر بما.

ويمتنع أن تكون مع التكذيب بما، وكذب المخبر بما؛

فلا يجوز وجودها لمن كذب الأنبياء، ولا لمن أقر بنبوة كذاب سواء كان هو نفسه المدعي للنبوة أو ادعى نبوة غيره.

وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: من الآية ٩٣].

وهؤلاء كلهم من أظلم الكاذبين كما قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]؛
فالمخبر بالنبوة مع ثبوتها هو الذي جاء بالصدق وصدق به.

والمخبر بما مع انتفائها هو الذي كذب على الله.

والمكذب بما مع ثبوتها هو الذي كذب بالحق لما جاءه؛

فدلائل النبوة هي مستلزمة لصدق من أثبت نبوة هي نبوة حق، يمتنع أن تكون لمن نفى هذه أو أثبت نبوة ليست نبوة "اهـ" (١).

وليس من شرط الآية التي تظهر على يد النبي ﷺ التحدي بما، فقد تظهر خوارق العادات بين أتباعه وأصحابه لتثبيتهم، ورحمة من الله تعالى لهم.

وسيرة الرسول ﷺ وشماله تتنافى مع حال أهل الكذب والمخرقة والادعاء.

المطلب الثاني : أنواع الإعجاز في السنة النبوية.

إن جوانب ما في الأحاديث النبوية من دلائل صدقه ﷺ - غير سيرته وشمائله - يمكن حصرها في جهات أربع:

الجهة الأولى : ما تضمنته سنته ﷺ من الفصاحة والبلاغة.

الجهة الثانية : ما تضمنته سنته ﷺ من الإخبار عن أمور غيبات وقعت كما أخبر عنها.

الجهة الثالثة : ما تضمنته سنته ﷺ من الآيات التي رآها الصحابة حساً.

الجهة الرابعة : ما تضمنته سنته ﷺ من تشريعات تخرج عن حد قدرة البشر، يشهد بصدقها وصلاحياتها وإصلاحها للبشرية جمعاء الواقع يوماً بعد يوم^(١)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩). ولقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥). ولقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩). ولقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيفَةً﴾ (النساء: ١٢٥). ولقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسْقُ الْيَوْمِ الْيَتْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣). ولقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١).

أما ما تضمنته سنته ﷺ من ما يتعلق بالآيات التي رآها الصحابة حساً؛ كنبع الماء من بين أصابعه، وقد حصل هذا في وقائع متعددة، منها ما جاء عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: "أتني النبي صلى الله عليه وسلم بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم قال قتادة: قلت لأنس كم كنتم قال ثلاث مائة أو زهاء ثلاث مائة" متفق عليه^(٢).

(١) وانظر كتاب "المنهاج القرآني في التشريع" لعبد الستار فتح الله سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٤١٣هـ، وهذا الكتاب وإن كان في المنهاج التشريعي في القرآن العظيم، إلا أن السنة مثل القرآن وهي المبينة له فكل ما ثبت في القرآن فهو في السنة النبوية، فالإعجاز التشريعي في القرآن مثله في السنة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧٢)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٥٢٧٩).

وكتكثير الماء ببركة مسح يده على المزداتين عن عمران بن حصين: "أَتَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ فَأَذْلَجُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ وَجْهُ الصُّبْحِ عَرَسُوا فَعَلَبَتْهُمْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ لَا يُوقِظُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنَامِهِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ فَاسْتَيْقَظَ عُمَرُ فَقَعَدَ أَبُو بَكْرٍ عِنْدَ رَأْسِهِ فَجَعَلَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ حَتَّى اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزَلَّ وَصَلَّى بِنَا الْعَدَاةَ فَأَعْتَرَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لَمْ يُصَلِّ مَعَنَا فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ يَا فُلَانُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا قَالَ أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ فَأَمَرَهُ أَنْ يَتِمَّمَ بِالصَّعِيدِ ثُمَّ صَلَّى وَجَعَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَكُوبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَدْ عَطِشْنَا عَطَشًا شَدِيدًا فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذَا نَحْنُ بِأَمْرَأَةٍ سَادِلَةٍ رِجْلَيْهَا بَيْنَ مَرَادَتَيْنِ فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ لَا مَاءَ. فَقُلْنَا: كَمْ بَيْنَ أَهْلِكَ وَبَيْنَ الْمَاءِ. قَالَتْ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ. فَقُلْنَا: انْطَلِقِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَتْ: وَمَا رَسُولُ اللَّهِ فَلَمْ نُمْلِكْهَا مِنْ أَمْرِهَا حَتَّى اسْتَقْبَلْنَا بِهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثَتْهُ بِمِثْلِ الَّذِي حَدَّثْتَنَا غَيْرَ أَنَّهَا حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا مُؤْتِمَةٌ فَأَمَرَ بِمَرَادَتَيْهَا فَمَسَحَ فِي الْعِزْلَاوَيْنِ فَشَرِبْنَا عِطَاشًا أَرْبَعِينَ رَجُلًا حَتَّى رَوَيْنَا فَمَلْنَا كُلَّ قَرِيبَةٍ مَعَنَا وَإِدَاوَةٍ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ نَسْقِ بَعِيرًا وَهِيَ تَكَادُ تَنْضُ مِنْ الْمِلءِ. ثُمَّ قَالَ: هَاتُوا مَا عِنْدَكُمْ فَجُمِعَ لَهَا مِنَ الْكِسْرِ وَالتَّمْرِ حَتَّى أَتَتْ أَهْلَهَا قَالَتْ: لَقِيتُ أُسْحَرَ النَّاسِ أَوْ هُوَ نَبِيٌّ كَمَا زَعَمُوا فَهَدَى اللَّهُ ذَاكَ الصَّرْمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَأَسْلَمَتْ وَأَسْلَمُوا" متفق عليه^(١).

وكتكثير الطعام وذلك حصل في وقائع متعددة من ذلك ما جاء عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لَأُمِّ سُلَيْمٍ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا فَلَفَتْ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ ثُمَّ دَسَتْهُ تَحْتَ يَدَيْ وَلِأَتْنِي بِبَعْضِهِ ثُمَّ أُرْسَلْتَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: بِطَعَامٍ فَقُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ مَعَهُ: قُومُوا فَاذْطَلِقُوا وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمِّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَاذْطَلِقُوا أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلُمِّي يَا أُمِّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكَ فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفُتَّ وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَّتْهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧١)، واللفظ له، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، حديث رقم (٦٨٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ثُمَّ قَالَ: أَئْذَنْ لِعَشْرَةٍ فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ: أَئْذَنْ لِعَشْرَةٍ فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ: أَئْذَنْ لِعَشْرَةٍ فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ثُمَّ قَالَ: أَئْذَنْ لِعَشْرَةٍ فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا" متفق عليه^(١).

وحنين الجذع، كما جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِئْبَرًا قَالَ إِنْ شِئْتُمْ فَجَعَلُوا لَهُ مِئْبَرًا فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِئْبَرِ فَصَاحَتْ النَّخْلَةُ صِيحَ الصَّبِيِّ ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ تَتْنُ أَنْبِ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكِّنُ قَالَ كَأَنَّكَ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا" أخرجه البخاري^(٢).
وغير ذلك.

أما ما تضمنته سنته من الفصاحة والبلاغة^(٣)، وما سمع منه ولم يسمع من غيره قبله، ضروب من الفصاحة والبلاغة والبيان، فتلك [ألفاظه التي لا يشوبها كدر الغي و لا يطمس رونقها التكلف، و لا يححو طلاوتها التفيهق]^(٤).

وألفاظه ﷺ وإن لم تصل إلى ألفاظ القرآن الكريم إلا أنها خارقة للعادة، إذ أن الفصيح البليغ تقع له هنات، و لا يستطيع ذلك مرات، أما أن يكون كلامه كله في جميع الأوقات ومختلف الحالات على أعلى الدرجات، فهذا خارج عن ما جرت عليه العادة لأصحاب الفصاحة والبلاغة.
ومن إعجاز لفظه وبلاغته ما أوتيته من جوامع الكلم.

وما وقع له من أفانين الكلم وأساليبها مما لم يسمع قبله ولم يحصل أحد فيها شأوه ﷺ.
وقد أفردت الكلام عن هذا في أصول الفهوم.

انظر : الأصل الثالث : في فصاحته صلى الله عليه وسلم وبلاغته.

أما ما يتعلق بما تضمنته سنته ﷺ من الإخبار عن أمور غيبية، فهي على أنواع :

النوع الأول : الأحاديث التي تضمنت الإخبار عن حوادث كائنات وعلامات ستكون في

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٧٨)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، حديث رقم (٢٠٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٨٢).

(٣) وقد اهتم الطيبي رحمه الله في شرحه للمشكاة بإبراز هذه النواحي البلاغية في كلامه ﷺ، فكتابه من أهم المصادر لمن أراد دراسة تطبيقية لهذا الجانب في حديث الرسول ﷺ. ومن كتب المتأخرين في هذا كتاب "الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية" للدكتور. كمال عز الدين.

(٤) من كلام ابن دريد في كتابه المجتني ص ٢٠.

المستقبل، فوقعت كما أخبر صلى الله عليه وسلم^(١).

النوع الثاني : ما جاء في كلامه ﷺ من الإخبار عن أمور كشفت الدراسات الوضعية عن صدق ما أخبر به، وهو ما يخص باسم الإعجاز العلمي^(٢)، وتشمل في ما تشمل الإعجاز الطبي.

النوع الثالث : ما أخبر عنه من المغيبات عند الأمم الماضية.

النوع الرابع : ما جاء في كلامه ﷺ عن بعض الأمور فوق وقوع في حياته ﷺ كما أخبر^(٣).

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: "قد جمع لبنينا محمد جميع أنواع المعجزات والخوارق؛ أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية؛ فمثل إخبار نبينا عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم.

ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء؛

تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر.

وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم، وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه.

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق، وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلية مثل:

ملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم، [عن ثوبان قال : قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنْ أُمِّتِي سَيَّلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَتَرَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ وَإِنْ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي

(١) وقد أفرد هذا النوع بعض الباحثين، من ذلك كتاب "أحاديث سيد المرسلين عن حوادث القرن العشرين" لعبد العزيز عز الدين السيروان، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

(٢) ولحمود مهدي استنبولي، كتاب "دلائل النبوة المحمدية في ضوء المعارف الحديثة، مصحوبة بتوجيهات وطرائف هائلة"، طبع مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

(٣) أفرد الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه "دلائل النبوة" الفصل التاسع والعشرين في ما أخبر به ﷺ من الغيوب فتحقق على ما أخبر به في حياته وبعد موته. دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٤٦٩-٤٨٨.

بَعْضُهُمْ بَعْضًا" (١)

وقتل الترك، [وهو ما جاء في حديث عمرو بن تغلب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا يَنْتَعِلُونَ نَعَالَ الشَّعْرِ وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا عِرَاضَ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ" (٢)].

وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها، مذكور بعضها في كتب دلائل النبوة، وسيرة الرسول، وفضائله، وكتب التفسير، والحديث، والمغازي، مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي، وسيرة ابن اسحق، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد والمدونة كصحيح البخاري (٣) وغير ذلك مما هو مذكور أيضا في كتب أهل الكلام والجدل كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللماوردي (٤)، والرد على النصارى للقرطبي، ومصنفات كثيرة جدا.

وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين وهي في وقتنا هذا اثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى، كالطورا والإنجيل والزبور وكتاب شعيا وحقوق ودانيال وأرميا.

وكذلك إخبار غير الأنبياء من الأخبار والرهبان.

وكذلك إخبار الجن والهواتف المطلقة.

وإخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرهما.

وكذلك المنامات وتعبيرها كمنام كسرى وتعبير الموبدان.

وكذا إخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من أعلامهم.

(١) وهو حديث صحيح، أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة...، حديث رقم (٢٨٨٩).

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قتل الترك، حديث رقم (٢٩٢٧).

(٣) من ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٩٥)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَعِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطَعَ السَّبِيلَ فَقَالَ: يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُثْبِتُ عَنْهَا قَالَ: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنَ الطَّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ. قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَارُ طَيْئِ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ. وَلَكِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى. قُلْتُ: كِسْرَى بَنُ هُرْمُزٍ قَالَ: كِسْرَى بَنُ هُرْمُزٍ. وَلَكِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ. وَلَيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرَجَّمُ لَهُ فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلَ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ وَيَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ. قَالَ عَدِيُّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ ثَمَرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ ثَمَرَةٍ فَبِكَلِمَةِ طَيْبَةٍ. قَالَ عَدِيُّ: فَرَأَيْتُ الطَّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بَنُ هُرْمُزٍ وَلَكِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرُونَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ.

(٤) مطبوع، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ.

وأما القدرة والتأثير فأما أن يكون في العالم العلوي أو ما دونه.

وما دونه إما بسيط أو مركب.

والبسيط إما الجو و إما الأرض.

والمركب إما حيوان وإما نبات، وإما معدن .

والحيوان إما ناطق وإما بهيم.

فالعلوي كانشقاق القمر ورد الشمس ليوشع بن نون^(١) كذلك ردها لما فاتت عليا الصلاة و النبي نائم في حجره - إن صح الحديث - فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض، ومنهم من جعله [موضوعاً] كأبي الفرج بن الجوزي وهذا أصح^(٢)، وكذلك معراجة إلى السماوات.

وأما الجو فاستسقاؤه واستصحائه غير مرة؛

كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرهما [عن أنس بن مالك يذكّر: "أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابِ كَانَ وَجَاهَ الْمَنْبَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتَ الْمَوَاشِي وَأَنْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثَنَا. قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا اللَّهُمَّ اسْقِنَا. قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَرَعَةٍ وَلَا شَيْئًا وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ الثُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ. قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتَ الْأُمُوالُ وَأَنْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُمَسِّكَهَا. قَالَ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْأَحَامِ وَالْظُرَابِ وَالْأُودِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ قَالَ فَأَنْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ"^(٣)]

وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره [عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظٍ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسِلت عليهم الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرسِلت عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا حَالُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ

(١) أخرجه أحمد (الميمنية ٣٢٥/٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة تحت رقم (٢٠٢).

(٢) وكذا حكم بوضعه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ونقل كلام ابن تيمية والذهبي وابن كثير في رد الحديث والحكم بسقوطه، في سلسلة الأحاديث الضعيفة حديث رقم (٩٧١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، حديث رقم (١٠١٣)، ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، حديث رقم (٨٩٧)، واللفظ للبخاري.

إِلَّا شَيْءٌ حَدَّثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِنَخْلَةٍ عَامِدِينَ إِلَى سَوْقٍ عُكَاطٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ فَهَنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَامْنَأْ بِهِ وَلْنُ نُسْرِكَ رَبَّنَا أَحَدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ^(١).

وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

و أما الأرض والماء، فكاهتراز الجبل تحته، [عن عَن قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُمْ قَالَ: "صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ وَقَالَ اسْكُنْ أُحُدُ أَظُنُّهُ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"^(٢)]

وتكثير الماء في عين تبوك، [وهو ما جاء في حديث عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلَاةَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمًا آخَرَ الصَّلَاةِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا ثُمَّ دَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا ثُمَّ قَالَ إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلَا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ فَجَنَّاها وَقَدْ سَبَقْنَا إِلَيْهَا رَجُلَانِ وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشَّرَاكِ تَبْضُ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ قَالَ فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا قَالَا نَعَمْ فَسَبَّهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُمَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ قَالَ ثُمَّ غَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ قَالَ وَغَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا فَجَرَتْ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مِنْهُمْ أَوْ قَالَ غَزِيرٍ شَكَّ أَبُو عَلِيٍّ أَيُّهُمَا قَالَ حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ ثُمَّ قَالَ يُوشِكُ يَا مُعَاذُ أَنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَاهُنَا قَدْ مُلِئَ جَنَانًا"^(٣)].

وعين الحديبية، [عن الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُروَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، حديث رقم (٧٧٣)، ومسلم في كتاب

الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصباح، والقراءة على الجن، حديث رقم (٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان، حديث رقم (٣٦٩٩).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (٧٠٦).

فَخَذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْحَيْشِ فَاَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّنِيَةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ فَالْحَتَّ فَقَالُوا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْيَةِ عَلَى تَمَدٍّ قَلِيلٍ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِّيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَطَشُ فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَحِيشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ...^(١).

ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة^(٢).

ومزادة المرأة^(٣).

وأما المركبات فتكثيره للطعام غير مرة :

[كما] في قصة الخندق من حديث جابر، [عن عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَيْمَنَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيرًا أَهِيلًا أَوْ أَهِيمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ فَقُلْتُ: لِامْرَأَتِي رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكَ شَيْءٌ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعِنَاقٌ فَذَبَحْتُ الْعِنَاقَ وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَقُلْتُ: طُعِيمٌ لِي فَقُمْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ قَالَ كَمْ هُوَ فَذَكَرْتُ لَهُ قَالَ: كَثِيرٌ طَيِّبٌ قَالَ: قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِيَ فَقَالَ قُومُوا فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيَحَلِكِ جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتُكَ قُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ: ادْخُلُوا وَلَا تَصَاغَطُوا فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَعْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ كُلِّي هَذَا وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ^(٤)].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة، حديث رقم (٢٧٣٤).

(٢) سبق تخريج إحداها في أول هذا الموضع.

(٣) حديث صحيح، سبق تخريجه .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، حديث رقم (٤١٠٢)، ومسلم في كتاب الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، حديث رقم (٢٠٣٩). واللفظ للبخاري.

وحديث أبي طلحة^(١).

وجراب أبي هريرة، [وهو ما جاء عن أبي العالية عن أبي هريرة قال: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بِتَمَرَاتٍ فَقُلْتُ ادْعُ اللَّهَ لِي فِيهِنَّ بِالْبَرَكَةِ قَالَ فَصَفَّهِنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ ثُمَّ دَعَا فَقَالَ لِي اجْعَلْنَهُنَّ فِي مَزُودٍ وَأَدْخِلْ يَدَكَ وَلَا تَنْثُرُهُ قَالَ فَحَمَلْتُ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا وَسَقَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَأْكُلُ وَنُطْعِمُ وَكَانَ لَا يُفَارِقُ حَقْوِي فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْقَطَعَ عَنْ حَقْوِي فَسَقَطَ"^(٢)].

ونخل جابر بن عبد الله، [وهو ما جاء عن جابر رضي الله عنه: أَنَّ أَبَاهُ تُوفَّى وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّ أَبِي تَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا يُخْرِجُ نَخْلَهُ وَلَا يَبْلُغُ مَا يُخْرِجُ سِنِينَ مَا عَلَيْهِ فَاَنْطَلِقُ مَعِيَ لِكَيْ لَا يُفْجَشَ عَلَيَّ الْغُرْمَاءُ فَمَشَى حَوْلَ بَيْدَرٍ مِنْ بِيَادِرِ التَّمْرِ فَدَعَا ثُمَّ آخَرَ ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ فَقَالَ انْزِعُوهُ فَأَوْفَاهُمْ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ"^(٣)].

وحديث جابر في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه، [وهو حديث طويل، محل الشاهد فيه، قوله: "سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفِيحَ فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي حَاجَتَهُ فَاتَّبَعْتُهُ بِإِذَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ فَتَنَظَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بَعْضُنِ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ انْقَادِي عَلَيَّ يَا ذَنْ لِي فَأَنْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الْأُخْرَى فَأَخَذَ بَعْضُنِ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ انْقَادِي عَلَيَّ يَا ذَنْ لِي فَأَنْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا لَأَمْ بَيْنَهُمَا يَعْني جَمْعَهُمَا فَقَالَ التَّيْمَا عَلَيَّ يَا ذَنْ لِي فَالتَّيْمَا قَالَ جَابِرٌ فَخَرَجْتُ أَحْضِرُ مَخَافَةً أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُرْبِي فَيَتَبَعِدَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ فَيَتَبَعِدُ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي فَحَانتْ مِنِّي لَفْتَةٌ فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقْبِلًا وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدْ افْتَرَقَتَا فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ"^(٤)].

وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل.

وكذلك من باب القدرة عصا موسى عليه السلام وقلق البحر والقمل والضفادع والدم وناقصة

(١) حديث صحيح، سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٧٦/١٤)، تحت رقم ٨٦٢٨ الرسالة)، (٥١/١٤)، تحت رقم ٨٢٩٩ بنحوه، الرسالة) والترمذي في سننه كتاب المناقب باب مناقب أبي هريرة عليه السلام، حديث رقم (٣٨٣٩)، وابن حبان (الإحسان ٤٦٧/١٤)، تحت رقم (٦٥٣٢)، والبيهقي في دلائل النبوة من طرق عن أبي هريرة (١٠٩/٦-١١١)، واللفظ لأحمد. والحديث قال عنه الترمذي: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه"، وحسن إسناده محققو المسند، وكذا محقق الإحسان.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٨٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفاق، باب حديث جابر الطويل وصاحبه أبي اليسر، حديث رقم (٣٠١٤).

صالح وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم و في الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها وإنما الغرض التمثيل بها.

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم فمثل قول عمر في قصة سارية وإخبار أبي بكر بأن بطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام.

و القدرة مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد وسقينة مولى رسول الله وأبي مسلم الخولاني. وأشياء يطول شرحها فان تعداد هذا مثل المطر وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه أكثر الناس.

وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه^(١). والمتفقه لا يستغني عن ضبط هذا النوع؛ لكثرة الأحاديث المدرجة تحت هذا الباب، ولعلاقته بإبراز محاسن وحكمة التشريع في باب بيان الأحكام والدعوة، ولخصوصية التعامل مع أحاديث الإعجاز النبوي هذه، فإن لأحاديث الفتن وأشراط الساعة، ولأحاديث الإعجاز العلمي من الضوابط والقواعد ما يحتاج إلى العلم به المتفقه في الحديث؛ وهذا موضوع المقصد الثاني.

(١) مجموع الفتاوى (١١/٣١٥-٣١٨)، باختصار يشير جداً، وما بين المعقوفين زيادة للإيضاح.

المطلب الثالث

العلم التجريبي والسنة النبوية

يقصد هنا ما جاء في السنة النبوية من أحاديث تدخل في باب العلوم التجريبية والطبية، ويكون فيها بيان وتقرير صدق النبي ﷺ وأنه نبي مرسل من عند الله عز وجل.

تبين من المطلب السابق أن الإعجاز العلمي والطبي في حقيقته يندرج تحت نوع من أنواع الإعجاز في السنة النبوية، إذ هو مندرج تحت الإعجاز بالإخبار بالأمر المغيبات.

حيث تقدم إن ما تضمنته سنته ﷺ من الإخبار عن أمور غيبات، على أنواع :

النوع الأول : الأحاديث التي تضمنت الإخبار عن حوادث كائنات وعلامات ستكون في المستقبل، ف وقعت كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

النوع الثاني : ما جاء في كلامه ﷺ من الإخبار عن أمور كشفت الدراسات الوضعية عن صدق ما أخبر به، وهو ما يخص باسم الإعجاز العلمي ، وتشمل في ما تشمل الإعجاز الطبي^(١).

النوع الثالث : ما أخبر عنه من المغيبات عند الأمم الماضية.

النوع الرابع : ما جاء في كلامه ﷺ عن بعض الأمور فوق في حياته ﷺ كما أخبر .

وعليه فإن الإعجاز العلمي والطبي نوع من أنواع ما تضمنته سنته ﷺ من الإخبار عن الأمور المغيبات.

والسؤال الآن :

ما المقصود بالعلم في قولنا: "الإعجاز العلمي والطبي"؟

أما لفظة الإعجاز فقد سبق الكلام عنها.

أما لفظة (العلم) فالمقصود هنا العلم الذي يعتمد في تحقيق قضاياه على التجربة من أجل الوصول إلى القوانين العلمية التي تحكم الظواهر التي تدرسها، ومقارنتها من أجل الوصول إلى النتائج. ويكون معيار الخطأ والصواب فيه هو مدى اتفاق القضايا المطروحة مع الواقع.

وهذا العلم التجريبي ليس هو العلم المذكور في النصوص الشرعية، إذ هناك المقصود العلم الشرعي المتعلق بمعرفة أحكام العبادات والمعاملات التي يحتاج المسلم تعلمها ليؤدي عبادة ربه على الوجه الأكمل، والتي مصدرها القرآن العظيم والسنة النبوية.

(١) ولحمود مهدي استنبولي، كتاب "دلائل النبوة المحمدية في ضوء المعارف الحديثة، مصحوبة بتوجيهات وطرائف هائلة"، طبع مكتبة المعلا، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

فليس العلم التجريبي كالعلم الشرعي الذي يعتمد على الرجوع للنصوص والأصول، فهنا معيار العلم نقل محقق، أو نظر محقق.

والعلم الشرعي فرض عيني على كل مسلم أن يتعلم من أحكام الدين ما يحتاجه للقيام بعبادة ربه. والعلم التجريبي فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، وهو مما يدخل تحت عموم (القوة) المأمور بإعدادها لدفع أعداء الله، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: من الآية ٦٠).

والعلم التجريبي غير كامل، فهو لا يقدم تفسيراً نهائياً شاملاً قاطعاً، فهو يتعلق بالظاهر من أمور الكون لا بالباطن منها، فهو يعطي الجواب عن (كيف) و لا يعط الجواب عن (ما) و (لم)! وهذا ما وصفه الله عن هذا العلم فقال تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧)، فهذا غاية العلم التجريبي (ظاهر الحياة الدنيا)!

ومن قصور العلم أنه لا يستطيع التحكم في شيء، والتنبؤ بما يمكن أن يحصل، على مستوى الأفراد، فكل شيء بالنسبة إلى العلم التجريبي المتعلق بظاهر الحياة الدنيا، ذو طبيعة احتمالية، وما دامت الأحداث ذات الرتبة الكبيرة تتكون في النهاية من أحداث فردية، فإن هذه الأحداث الكبيرة ذات طبيعة احتمالية في العلوم التجريبية.

ونتيجة لهذا القصور فإن الاكتشافات العلمية ذات طبيعة فجائية، فإن طريق البحث غير متحكم فيه، والباحث في مسائل العلم التجريبي يبدأ و لا يدري متى ينتهي ولا ماذا عليه أن يفعل بالضبط، سواء سلكوا طريق البحث الاستدلالي أم طريق البحث الاستقرائي!^(١)

أما (الطب) فهو من العلم التجريبي. وهو ما يتعلق بحفظ الصحة، وبراء المرض الحاصل^(٢). فالإعجاز العلمي والطبي في السنة النبوية يقصد به : ما جاء في الأحاديث النبوية من أحاديث تتضمن آيات ودلائل دالة على صدقه ﷺ في نبوته من جهة ما تضمنته من أخبار غيبية تتعلق بجوانب العلم التجريبي والطبي من جهة سبق الرسول ﷺ إلى الإشارة إليها وتقريرها، مما يعجز الإنسان عن معرفته في ذلك الوقت، بل لم يقف على بعضه إلا الآن، وبعضه الآخر لم يقف عليه أصلاً.

(١) وقد كتب عن هذه الحقيقة جماعة منهم : وارين ويفر في مقال له بعنوان (عدم كمال العلم) ضمن كتاب العلم معنى وطريقة، لصمويل رابورت، وهيلين رايت، ترجمه محمد أحمد بنونه، مكتبة الأنجلو/ القاهرة، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر/ القاهرة، نيويورك/ سبتمبر ١٩٦٨ م. و د. محمد الغمراوي، في كتابه الإسلام في عصر العلم، في فصل بعنوان (العلم قرآني بطبيعته) ص ٥٨-٦٧، وفصل (مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث) ص ٦٧-٦٨. و د. عماد الدين خليل في كتابه "مدخل إلى موقف القرآن من العلم" ص ٢١.

(٢) إتمام الدراية لقراء النقاية ص ١٥٤. للسيوطي/ ضبطه وكتب حواشيه إبراهيم العجوز/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال :

١- ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةٍ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا"(١).

فهذا الحديث فيه إشارة إلى قضية علمية، وذلك في قوله ﷺ: "حتى تعود أرض العرب" فقوله: "تعود" يفيد أنها كانت كذلك، وسترجع، وهذه حقيقة أثبتها علماء الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) حيث قرروا أن الجزيرة العربية كانت تجري فيها الأنهار، وأنها ستعود كما كانت. ويلاحظ هنا : أن الحديث لم يسق أصلاً لبيان هذه الحقيقة العلمية إنما جاء ذكرها عرضاً لا غرضاً، إنما سيق الحديث من أجل موضوع الصدقة، وأن الناس في ذلك الوقت لا يقبلونها .

٢- "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طَهُورُ إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْ لَاهُنَّ بِالتُّرَابِ"(٢).

هذا الحديث فيه إعجاز علمي، إذ أمر فيه بغسل الإناء من لعاب الكلب سبع مرات، أو لاهن بالتُّراب، فبالغ في غسل الإناء، وأمر بالتُّراب، وذلك في سؤر الكلب دون غيره من السباع. وقد أثبت العلم الحديث أن في لعاب الكلب نوع من الميكروبات الضارة لا يقتلها إلا التُّراب. ويلاحظ هنا : أن الحديث لم يذكر القضية العلمية ذاتها، إنما ذكر أمراً يفيد مراعاة معناها، فلم يقل الرسول ﷺ مثلاً: إن في لعاب الكلب ما لا يذهب إلا بالتُّراب. كما أنه ساق هذه الأمور في بيان كيفية إزالة نجاسة لعاب الكلب من الإناء.

٣- الأحاديث الواردة في السواك وفضل استعماله والترغيب فيه.

وقد أثبت العلم الحديث أن في السواك وهو عود الأراك دون غيره من أعواد الشجر خاصية نافعة للأسنان. فهذا وجه في الإعجاز العلمي في هذه الأحاديث(٣) .

ووجه آخر للإعجاز في السنة النبوية في هذه الأحاديث: أن المبالغة في الحَض على استعمال السواك، قد جاء في العلم الحديث ما يبررها من جهة خطورة أمراض اللثة على القلب والأوعية الدموية، بل صار من المقرر أن صحة الأسنان واللثة هي عنوان صحة الجسم جميعه.

ويلاحظ هنا : أن السنة النبوية دعت للسواك وأنه طهرة للفم ومرضاة للرب من جهة تعبدية

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يأخذها، حديث رقم (١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، حديث رقم (٢٧٩).

(٣) انظر : زاد المعاد (٤/٣٢٢-٣٢٤)، وكتاب "السواك والعناية بالأسنان"، للدكتور عبدالله عبدالرزاق مسعود السعيد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ، جدة.

محضة فلم تسق الأحاديث لبيان شيء من هذه الحقائق العلمية التي اكتشفت وعرفت فيما بعد.

٤- عن عائشة تقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّهُ خَلَقَ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ مَفْصِلٍ فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَهَلَّلَ اللَّهَ وَسَبَّحَ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِ مِائَةِ السُّلَامَى فَإِنَّهُ يَمْشِي (وربما قال يمسي) يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحَزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ"^(١).

وجهة الإعجاز في هذا الحديث هي مطابقة هذا العدد المذكور في الحديث للعدد الذي قرره علماء التشريح اليوم تماماً.

٥- عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى"^(٢).
وهذه النار قد حدثت كما أخبر به علماء التاريخ في يوم الجمعة الخامس من شهر جمادى الآخرة، من سنة ٦٥٤هـ.

٦- الأحاديث الواردة في العسل.

وقد أثبت العلم الحديث خصائص طبية للعسل في الطب الوقائي وفي الطب العلاجي، وفي نواحي أخرى^(٣).

٧- الأحاديث الواردة في الحجامة.

وقد أثبت العلم الحديث أن الحجامة فيها من النفع والفائدة في الطب الوقائي والعلاجي، ما تحير معه الأطباء، وعكفوا على درسه وتعلمه، وفتحت بذلك العيادات^(٤).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن سام الصدقة يقع على اسم كل شيء من المعروف، حديث رقم (١٠٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب خروج النار، حديث رقم (٧١١٨)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، (٢٩٠٢).

(٣) انظر حول ذلك كتاب "النحلة تسبح الله، بلغة العلم ولسان الواقع"، لمحمد حسن الحمصي، الطبعة الرابعة ١٣٩٩م، دار الرشيد، دمشق. وكتاب "العسل فيه شفاء للناس"، لمحمد نزار الدقر، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، دمشق.

(٤) وللطبيب محمد أمين شيخو دراسة مفردة عن الحجامة موثقة بالدراسات العلمية الطبية الحديثة، وقد نشرت على صفحات الانترنت.

المقصد الثاني

قواعد دراسة الإعجاز العلمي والطبي في السنة النبوية.

ويشتمل على القواعد التالية :

- قاعدة : أحاديث الطب من الوحي وليست من قبيل أمور العاديات.
 - قاعدة : الأحاديث النبوية يؤمن ويعمل بها، دون حاجة إلى تجارب المختبرات.
 - قاعدة: الكلام في إعجاز السنة فرع عن ثبوتها.
 - قاعدة: عدم الهجوم على معاني الأحاديث دون التأهل العلمي لذلك.
 - قاعدة : الأحاديث النبوية تسبق المعارف البشرية، والاكتشافات المخبرية.
 - قاعدة : لم تسق الأحاديث النبوية لبيان الأمور العلمية والطبية.
- وإليك البيان :

المقصد الثاني

قواعد دراسة الإعجاز العلمي والطبي في السنة النبوية.

أسوق هنا القواعد التي يؤخذ بها عند دراسة الإعجاز العلمي في السنة النبوية، ليلفح الباحث غايته المنشودة؛

فأقول :

وجوه كون الأحاديث النبوية التي فيها الإخبار عن الأمور الغيبية المتعلقة بأمر العلم التجريبي إعجازاً يظهر من الجهات التالية:

الأولى : من جهة أنه إخبار عن غيب لا يبلغه علم البشر .

الثانية : أن الرسول ﷺ أمني لا يصل إلى معرفة شيء من هذه الأمور بالنقل عن غيره، هذا لو وجد من يعلمها قبله ﷺ، فهذا دليل أنه نبي مرسل من عند الله تبارك وتعالى .
قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣) .

الثالثة : أن الوصول إلى بعض النتائج في العلم التجريبي يحتاج إلى وقت كثير وجهد كبير، ومعامل خاصة، وهذا الرسول ﷺ بين ظهرائهم لا يغيب عنهم، فمن أين له هذه المعرفة بأمر الكون في الجوانب المتعددة؟ لا شك أنه رسول من عند الله تعالى!

وتقرير الإعجاز العلمي في الأحاديث النبوية يضبط من خلال قواعد علمية متفرقة عند علماء الشرع، وهي التالية:

قاعدة

أحاديث الطب من الوحي وليست من قبيل أمور العاديات

وهذه القاعدة دليلها عموم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤). إذ يشمل ذلك ما جاء عنه ﷺ من أحاديث في الطب.

قال شاه ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦ هـ) رحمه الله: "اعلم أن ما روي عن النبي ﷺ ودون في كتب الحديث على قسمين:

أحدهما: ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة، وفيه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: من الآية ٧)، منه علوم المعاد وعجائب الملكوت، وهذا كله مستند إلى الوحي، ومنه شرائع وضبط للعبادات والارتفاقات بوجوه الضبط... وهذه بعضها مستند إلى الوحي، وبعضها مستند إلى الاجتهاد، واجتهاده ﷺ بمنزلة الوحي؛ لأن الله تعالى عصمه من أن يتقرر رأيه على الخطأ، وليس يجب أن يكون اجتهاده استنباطاً من المنصوص كما يظن، بل أكثره أن يكون علمه الله تعالى مقاصد الشرع، وقانون التشريع، والتيسير والأحكام، فبين المقاصد المتلقاة بالوحي بذلك القانون، ومنه حكم مرسله ومصالح مطلقة، لم يوقتها ولم يبين حدودها، كبيان الأخلاق الصالحة وأضدادها ومستنداتها غالباً إلى الاجتهاد، بمعنى أن الله تعالى علمه قوانين الارتفاقات فاستنبط منها حكمة وجعل فيها كلية، ومنه فضائل الأعمال ومناقب العمال. وأرى أن بعضها مستند إلى الوحي، وبعضها إلى الاجتهاد.

وثانيهما: ما ليس من باب تبليغ الرسالة، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر"، وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة تأبير النخل: "فإني إنما ظننت ظناً، ولا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لم أكذب على الله" (١)؛

فمنه الطب.

ومنه باب قوله ﷺ: "عليكم بالأدھم الأقرح" (٢)، ومستنده التجربة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم (٢٣٦٣). ولفظه: "عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: يُلْقَحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيُلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَظُنُّ يَغْنِي ذَلِكَ شَيْئاً. قَالَ: فَأَخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئاً فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ".

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٧/٣١)، تحت رقم ١٩٠٣٢ (الرسالة)، وأبو داود في كتاب الجهاد باب ما يستحب من ألوان الخيل، تحت رقم (٢٥٤٣)، والنسائي في كتاب الخيل، باب ما يستحب من شية الخيل حديث رقم (٣٥٦٥).

ومنه ما فعله ﷺ على سبيل العادة دون العبادة، وبحسب الاتفاق دون القصد.

ومنه ما ذكره كما كان يذكر قومه كحديث أم زرع^(١)، وحديث خرافة^(٢).

وهو قول زيد بن ثابت حيث دخل عليه نفر فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٣).

ومنه ما قصد به مصلحة جزئية يومئذ، وليس من الأمور اللازمة لجميع الأمة، وذلك مثل ما يأمر به الخليفة من تعبئة الجيوش، وتعيين الشعار.

وضعه محققو المسند لأن مدار سنده على عقيل بن شبيب، وهو مجهول.

ولفظ الحديث عند أحمد: "حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُهَاجِرٍ يَعْنِي أَخَا عَمْرٍو بْنِ مُهَاجِرٍ قَالَ حَدَّثَنِي عَقِيلُ بْنُ شَبِيبٍ عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَحِبُّوا الْأَسْمَاءَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَامْرَأَةٌ وَارْتَبَطُوا الْخَيْلَ وَامْسَحُوا بِنَوَاصِيهَا وَأَعْجَازِهَا أَوْ قَالَ وَأَكْفَالِهَا وَقَلْدُوهَا وَلَا تُقْلِدُوهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَيْكُمْ بِكُلِّ كُمَيْتٍ أَعْرَ مُحَجَّلٍ أَوْ أَشَقَرٍ أَعْرَ مُحَجَّلٍ أَوْ أَذْهَمٍ أَعْرَ مُحَجَّلٍ حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُهَاجِرِ حَدَّثَنَا عَقِيلُ بْنُ شَبِيبٍ عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْكَلَاعِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ مَعْنَاهُ قَالَ مُحَمَّدٌ وَلَا أَدْرِي بِالْكُمَيْتِ بَدَأَ أَوْ بِالْأَذْهَمِ قَالَ وَسَأَلُوهُ لِمَ فَضَّلَ الْأَشَقَرَ قَالَ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جَاءَ بِالْفَتْحِ صَاحِبُ الْأَشَقَرِ".

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، حديث رقم (٥١٨٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع، حديث رقم (٢٤٤٨). وهو حديث طويل فيه ذكر قصة اجتماع نسوة ووصفهن لأزواجهن، ومنهن أم زرع.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤١/٤٢)، تحت رقم (٢٥٢٤٤)، ولفظه: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ حَدِيثًا فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ الْحَدِيثُ حَدِيثَ خُرَافَةٍ فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا خُرَافَةٌ إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ رَجُلًا مِنْ عُذْرَةِ أَسْرَتِهِ الْجَنُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَمَكَثَ فِيْهِنَّ ذَهْرًا طَوِيلًا ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى الْإِنْسِ فَكَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا رَأَى فِيْهِمْ مِنَ الْأَعَاجِيبِ فَقَالَ النَّاسُ حَدِيثُ خُرَافَةٍ".

والحديث ضعيف، وضعفه محققو المسند. في السند مجاهد بن سعيد ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٠/٥)، تحت رقم (٤٨٨٢)، وفي الأوسط (٣٠١/٨)، تحت رقم (٨٦٩٧)، والبيهقي في الكبرى (٥٢/٧).

قال في مجمع الزوائد (١٧/٩)، "رواه الطبراني وإسناده حسن" اهـ، وتعقبه محقق المعجم الكبير للطبراني بقوله: "بل إسناده ضعيف، عبدالله بن صالح ضعيف، والوليد بن أبي الوليد وسليمان بن خارجة لم يوثقهما إلا ابن حبان، قال الحافظ في الأول: لين، وفي الثاني: مقبول" اهـ. قلت: عبدالله بن صالح كاتب الليث صدوق له أوهام، ليس هذا منها، والوليد وثقه أبو زرعة وقال فيه أبو داود خيرا، ووثقه الذهبي في الكاشف، وسليمان بن خارجة لم يوثقه إلا ابن حبان، ولم يذكروا في الرواة عنه إلا ولده، والمتن المروي غير منكر، فالحديث في أدنى درجات الحسن، وعليه فكلام الهيثمي رحمه الله متجه فيما يظهر لي، والله أعلم.

وهو قول عمر رضي الله عنه: "ما لنا وللرمل، كنا نترأى به قوماً قد أهلكهم الله" (١) ثم خشي أن يكون له سبباً آخر.

وقد حمل كثير من الأحكام عليه كقوله ﷺ: "من قتل قتيلاً فله سلبه" (٢).

ومنه حكم وقضاء خاص، وإنما كان يتبع فيه البيئات والأيمان.

وهو قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: "والشاهد يرى ما لا يرى الغائب" (٣). "أهـ" (٤).

قلت: ما ذكره رحمه الله من أن أحاديث الطب من قبيل العاديات ليس من باب تبليغ الرسالة، هكذا بإطلاق لا يسلم، بل الأصل أن كلامه صلى الله عليه وسلم هو من جهة كونه رسول يوحى إليه، لا ينطق عن الهوى، إلا ما اقترن بكونه ليس بوحي أو أنه ظن ورأي منه صلى الله عليه وسلم، والبقاء على هذا الأصل هو المتعين عندي، وبالله التوفيق.

وقد تبني بعض الناس أن الأحاديث النبوية في الطب والعلاج وليس فيها ما يشعر أنها من قبل الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الرمل في الحج والعمرة، تحت رقم (١٦٠٥)، ولفظه: "عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: للرُّكن أما والله إنني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ولو أنا رأيْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم استلمك ما استلمتُك فاستلمته ثم قال: فما لنا وللرمل إنما كنَّا رأينا به المُشركين وقد أهلكهم الله ثم قال شيءٌ صنعهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلا نُحبُّ أن نتركهُ"

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب من لم يخمس الأسلاب، وفي مواضع أخرى، منها في كتاب الأحكام باب الشهادة تكون عند الحاكم على ولايته القضاء أو قبل، حديث رقم (٧١٧٠)، ولفظه فيه: "عن أبي محمد مولى أبي قتادة أن أبا قتادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين: من له بينة على قتيْل فقله فله سلبه. فقامت لأتيمس بيته على قتيْل فلَمْ أرَ أحداً يشهد لي فجلستُ ثم بدا لي فذكرتُ أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجلٌ من جلسائه: سلاحُ هذا القتيْل الذي يذكركُ عندي! قال: فأرضيه منه. فقال أبو بكر: كلاً لا يُعطيه أصيب من قريش ويدع أسداً من أسد الله يُقاتل عن الله ورسوله. قال فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأداه إلي فاشتريتُ منه خرافاً فكان أول مال تأتته قال لي عبد الله عن الليث فقام النبي صلى الله عليه وسلم فأداه إلي". قال البخاري عقبه: "وقال أهل الحجاز الحاكم لا يقضي بعلمه شهد بذلك في ولايته أو قبلها ولو أقر خصم عنده لآخر بحق في مجلس القضاء فإنه لا يقضي عليه في قول بعضهم حتى يدعو شاهدين فيحضرهما إقراره وقال بعض أهل العراق ما سمع أو رآه في مجلس القضاء قضى به وما كان في غيره لم يقض إلا بشاهدين وقال آخرون منهم بل يقضي به لأنه مؤتمن وإنما يراد من الشهادة معرفة الحق فعلمه أكثر من الشهادة وقال بعضهم يقضي بعلمه في الأموال ولا يقضي في غيرها وقال القاسم لا ينبغي للحاكم أن يقضي قضاء بعلمه دون علم غيره مع أن علمه أكثر من شهادة غيره ولكن فيه تعرضاً لثمة نفسه عند المسلمين وإيقاعاً لهم في الظنون وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم الظن فقال إنما هذه صفة"، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيْل، حديث رقم (١٥٧١). وانظر جامع الأصول (٢/٦٨٨).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦٣/٢)، حديث رقم ٦٢٨ الرسالة)، ولفظه: "عن علي رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله إذا بعثتني أكون كالسكة المحممة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب قال الشاهد يرى ما لا يرى الغائب". والحديث حسنه لغيره، محققو المسند.

(٤) حجة الله البالغة (١/١٢٨-١٢٩).

تعالى، أو أنها من قبيل الشرع، أنه لا حجة فيها، وأنها من أمور العاديات، التي يقال فيها أنتم أدرى بشؤون دنياكم^(١). وزاد "إن الأحاديث التي فيها ذكر أدوية أو معالجات يخبر النبي ﷺ أنه علمها بطريق الوحي، أو إخبار الملائكة، أو أن الله يحبها أو يكرهها، ونحو ذلك؛ قال: لا بد لاعتبار أي حديث من الأحاديث التي من هذه الفئة حجة في باب الطب من أمرين: الأول: أن يكون الحديث على درجة عالية من الصحة. والثاني: أن يخضع مضمون الحديث للتجارب الطبية تحت نظر الاختصاصيين، فإن ثبتت صلاحيته كفى، وتكون التجارب هي الحجة في ذلك"^(٢).

قلت: وهذا تناقض وهدر لأحاديث الطب، وهور؛

أما أنه تناقض فلأنه بنى بحثه على التفريق بين نوعين من الأحاديث، النوع الأول منها الأحاديث النبوية في الطب والعلاج التي تعتبر شرعاً، وعد منها الأحاديث التي فيها ذكر أدوية أو معالجات يخبر النبي ﷺ أنه علمها بطريق الوحي، أو إخبار الملائكة، أو أن الله يحبها أو يكرهها، ونحو ذلك، فجعل كون الأحاديث من هذه الصفة مدخل لها في النوع الأول، ثم عاد وقال: "لا بد لاعتبار أي حديث من الأحاديث التي من هذه الفئة حجة في باب الطب من أمرين: الأول: أن يكون الحديث على درجة عالية من الصحة. والثاني: أن يخضع مضمون الحديث للتجارب الطبية تحت نظر الاختصاصيين، فإن ثبتت صلاحيته كفى، وتكون التجارب هي الحجة في ذلك".

فجعلها بعد ثبوتها محتاجة لخضوعها للتجربة الطبية، لا بل إذا ثبتت صلاحيتها بالتجربة تكون التجارب هي الحجة! فهل بعد هذا التناقض شيء؟!؟

أما أنه هدر لأحاديث الطب، فلأنه جعل الأحاديث المتضمنة دلالة واضحة على كونها وحي من الله محتاجة لتثبت ليس فقط إلى ثبوتها إسناداً، بل جعلها خاضعة للتجربة الطبية، حتى تقبل، فإن صحت قبلت للتجربة الطبية لا لمجرد صحتها إسنادياً.

فإن قيل: لعل الرجل يقصد أن عدم موافقة الأحاديث للتجربة الطبية، طعن في صحتها وفي ثبوت نسبتها، إذ هذا نقد للمتن!

فالجواب: هذا لا يصح ولا يستقيم، لأن التجربة الطبية قاصرة، ووحى الله حق، منه ما يبلغ

(١) تبين هذا محمد سليمان الأشقر، وأفرده ببحث عنوانه: "مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية"، طبع دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ. وسبق إلى هذا ابن خلدون في قدمته ص ٤٦٥، حيث قرر أن الطب المنقول في الشرعيات ليس من الوحي في شيء، إنما هو أمر كان عادياً للعرب. وهذا هو كلام شاه ولي الدهلوي كما ترى هنا؛ وقد أوعزت إلى أخي أحمد بالرد على هذه الفكرة فصنف بحثاً مفيداً نافعاً، جزاه الله خيراً، بعنوان "حجية الأحاديث النبوية الواردة في الطب والعلاج"، تقدم به في مادة الإعجاز في السنة النبوية، في قسم الحديث، بالدراسات العليا، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، عام ١٤٢٣هـ.

(٢) مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية ص ٦٦-٧٠ باختصار.

الإنسان إلى معرفته، وأغلبه لا يعرف الإنسان حقيقته وكنهه، إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فكيف يجعل القاصر حكماً على الوحي الثابت بالطرق التي جرى عليها أهل الحديث؟! وما حديث الذباب ببعيد عن الأذهان، لما تجرأ بعض الناس على رده لأنه خالف ما ظنه حقيقة علمية، من كون الذباب حامل للميكروبات وجراثيم المرض، فرد الحديث الذي فيه غمس الذباب في الإناء الذي يسقط فيه قبل طرحه، وتناول ما في الإناء، ثم تبين بعد ذلك أن في أحد جناحي الذباب داء وفي الآخر دواء كما أخبر صلى الله عليه وسلم!

أما إنه قهور؛ فلأن الرجل أورد في أول بحثه أن القول بأن أحاديث النبي ﷺ في الطب حق وصواب، وأنها معتمدة على أنها من كلام من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، نقل هذا المذهب عن أهل الحديث، وعن علماء من أهل السنة، ونقل المذهب الثاني الذي اعتمده عن بعض العلماء ممن ينتسب إلى الاعتزال، وغيرهم من المتأخرين، فخالف طريق المحدثين، وتبع هؤلاء، وهذا قهور في نظري!

والمعتمد أنه صلى الله عليه وسلم ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٣-٤)، إلا ما جاء صريحاً أنه ظن منه أو رأي رآه، وما عدا هذا فالأصل أنه وحي، ولا يقر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خطأ، كيف وهو نبي هدى ورحمة صلوات ربي وسلامه عليه؟!

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: "كل ما قاله بعد النبوة وافر عليه ولم ينسخ فهو تشريع؛ لكن التشريع يتضمن الإيجاب والتحريم والإباحة.

ويدخل في ذلك ما دل عليه من المنافع في الطب، فإنه يتضمن إباحة ذلك الدواء والانتفاع به فهو شرع لإباحته وقد يكون شرعاً لاستحبابه؛ فإن الناس قد تنازعوا في التداوي هل هو مباح أو مستحب أو واجب؟

والتحقيق أن منه ما هو محرم ومنه ما هو مكروه ومنه ما هو مباح ومنه ما هو مستحب وقد يكون منه ما هو واجب وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره كما يجب أكل الميتة عند الضرورة فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجهور العلماء، وقد قال مسروق: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار؛ فقد يحصل أحياناً للإنسان إذا استحر المرض ما إن لم يتعالج معه مات والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكاستخراج الدم أحياناً.

والمقصود أن جميع أقواله يستفاد منها شرع.

وهو لما رآهم يلقحون النخل قال لهم: "ما أرى هذا - يعني شيئاً -"، ثم قال لهم: "إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله فلن أكذب على الله"، وقال: "أنتم أعلم بأمور دنياكم فما كان

من أمر دينكم فيالي" (١)، وهو لم ينههم عن التلقيح لكن هم غلطوا في ظنهم أنه نهاهم كما غلط من غلط في ظنه أن الخيط الأبيض والخيط الأسود هو الحبلى الأبيض والأسود" اهـ (٢).

فالحاصل : أن جميع ما يصدر من الرسول ﷺ من قول على سبيل الجزم أو فعل لا يخلو من حالتين :

إما أن يظهر فيه صريحاً معنى التبليغ والوحي، فهذا لا كلام في أنه وحي من الله تعالى. وإما أن لا يظهر فيه صريحاً كونه وحي، فهذا القسم الثاني يندرج تحت عموم قوله تعالى: ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤)، فيستفاد منه التشريع، حتى يقوم الدليل على خلافه.

ويتأكد هذا بأن تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقاً وصدقاً وعدلاً، وأن الله سبحانه لا يقره على باطل، فكشف يسوغ والحال هذه أن يقول الرسول شيئاً غير موافق للواقع؟! ويدخل تحت هذا أحاديث الطب والعلاج.

أما الاحتجاج بحديث "أنتم أدرى بشؤون دنياكم" على أن كلام الرسول فيما ليس هو بلاغ عن الله تعالى ليس بوحي، ولا عصمة فيه؟ فاحتجاج لا يصح؛ لأن الظاهر في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجزم بما فهم عنه، وإنما ظن ظناً في أن التأخير لا يغني شيئاً لأن الله عز وجل هو الذي يقدر كل شيء، فبفضل الله تعالى ورحمته وقدرته تلقح النخل، وليس اللقاح بالتأخير! فلو حصل التأخير ولم يقدر الله ما حصل اللقاح، ولو قدر الله حصول اللقاح وما ابروا حصل اللقاح بإذن الله، وهذا واضح من حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابي، ولم يعن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يترك الصحابة اللقاح، بل عليهم أن يراعوا في أمور دنياهم ما جرت به سنة الكون من السعي والعمل والأخذ بالسباب ولكن لا تتعلق النفوس إلا بالله مسبب الأسباب ومقدرها.

عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: يُلْقِحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيُلْقِحُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَظُنُّ يُعْنِي ذَلِكَ شَيْئاً.

قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكَوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثَكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئاً فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" (٣).

(١) حديث صحيح . سبق تخريجه .

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١١-١٢).

(٣) حديث صحيح . سبق تخريجه .

فإذا جاء حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن طبي وعلاجي، يجزم فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بحصول الشفاء؛ وجب قبوله، وتصديقه، والأخذ به، واعتقاده أنها وحي، لعموم الآية: قوله تعالى: ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤)، فإن قام دليل على خلاف هذا العموم خصص منه، وبقي ما عداه على العموم؛ مع التنبيه إلى دلالة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الجزئية التي خصصت من العموم يستفاد منه في التشريع لأنه صلى الله عليه وسلم لا يُقر على خطأ، فكل أقواله حق وصدق، وكل تصرفاته يستفاد منها التشريع، سواء علمنا أنها بوحي أم لا، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يقر إلا على الحق.

وهذا كحديث: عن عامر بن سعدٍ سمِعْتُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمْ وَلَا سِحْرٌ"^(١). وكحديث: عن أبي هريرة: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَالسَّامُ الْمَوْتُ". وَالْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ: الشُّونِيزُ^(٢). وكحديث: عَنْ أُمِّ قَيْسٍ قَالَتْ: دَخَلْتُ بَابَن لِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَعْلَقْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْعُذْرَةِ. فَقَالَ: عَلَى مَا تَدْعُرْنَ أَوْلَادَكُمْ بِهَذَا الْعِلَاقِ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ مِنْهَا ذَاتُ الْجَنْبِ يُسْعَطُ مِنَ الْعُذْرَةِ وَيُلْدُ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ"^(٣). وغيرها^(٤).

وقد قال المازري (ت ٥٣٦هـ) رحمه الله: "لسنا نستظهر على قول النبي ﷺ بأن تصدقه الأطباء، بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم وصدقناه ﷺ حتى يؤخذ بالمشاهدة بصحة ما قالوه فنفتقر إلى تأويل كلامه ﷺ وتخريجه على ما يصح إذا قامت الدلالة على أنه لا يكذب" اهـ^(٥). وقال ابن أبي جمة (ت ٥٩٩هـ) رحمه الله، معلقاً على حديث الحبة السوداء: "تكلم الناس في هذا الحديث، وخصوا عمومهم وردوه إلى قول أهل الطب والتجربة ولا خفاء بغلط قائل ذلك، لأننا إذا صدقنا أهل الطب - ومدار علمهم غالباً إنما هو على التجربة التي بناؤها على ظن غالب -

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر، حديث رقم (٥٧٦٩)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، حديث رقم (٢٠٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الحبة السوداء، حديث رقم (٥٦٨٨)، ومسلم في كتاب السلام، التداوي بالحبة السوداء، حديث رقم (٢٢١٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب العذرة، حديث رقم (٥٧١٥)، ومسلم في كتاب السلام باب التداوي بالعود الهندي وهو الكست حديث رقم (٢٨٧).

(٤) انظر كتاب "معجزات في الطب للنبي العربي محمد ﷺ" للطبيب محمد سعيد السيوطي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

(٥) المعلم (٩٩/٣).

فتصديق من لا ينطق عن الهوى أولى من كلامهم" اهـ^(١).

واختم بقول ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) رحمه الله: "ولعل قائلًا يقول: ما لهدي الرسول ﷺ وما لهذا الباب وذكر قوى الأدوية وقوانين العلاج وتدبير أمر الصحة؟

وهذا من تقصير هذا القائل في فهم ما جاء به الرسول ﷺ ؛

فإن هذا وأضعافه وأضعافه من فهم بعض ما جاء به وإرشاده إليه ودلالته عليه وحسن الفهم عن الله ورسوله من يَمُنُّ الله به على من يشاء من عباده.

فقد أوجدناك أصول الطب الثلاثة في القرآن^(٢) ، وكيف تنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان، كاشتمالها على صلاح القلوب، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها ودفع آفاتهما بطرق كلية، قد وكل تفصيلها إلى العقل الصحيح والفطرة السليمة بطريق القياس والتنبيه والإيماء كما هو في كثير من مسائل فروع الفقه.

ولا تكن ممن إذا جهل شيئاً عاداه.

ولو رزق العبد تضلعا من كتاب الله وسنة رسوله، وفهما تاما في النصوص ولوازمها لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه ولاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه؛

وذلك مسلّم إلى الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فهم أعلم الخلق بالله وأمره وخلقه وحكمته في خلقه وأمره.

وطب أتباعهم أصح وأنفع من طب غيرهم.

وطب أتباع خاتمهم وسيدهم وإمامهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أكمل الطب وأصح وأنفعه.

ولا يعرف هذا إلا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ثم وازن بينهما فحينئذ يظهر له التفاوت" اهـ^(٣) .

وقال أيضاً رحمه الله: "ليس طبه ﷺ كطب الأطباء؛ فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي، صادر عن الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أكثره حدس وظنون وتجارب" اهـ^(٤).

ومن فروع هذه القاعدة : أن كل ما جاءت الإشارة إليه في نصوص السنة النبوية مما له علاقة

(١) نقله في فتح الباري (١٠/١٤٥).

(٢) أصول الطب الثلاثة هي : حفظ الصحة . واستفراغ المرض . والحمية عن المؤذي . زاد المعاد (٤/٦٧).

(٣) زاد المعاد (٤/٤١٤).

(٤) زاد المعاد (٤/٣٦).

بالأمور الكونية الداخلة في العلم التجريبي هي من الحقائق، بخلاف أمور العلم التجريبي فمنها ما قد توصل إلى معرفة كونه حقيقة ومنها ما في طور النظرية، يخضع للتجربة والاختبار. فما جاءت الإشارة إليه في السنة النبوية هو من الحقائق حتى ولو كان في العلم التجريبي من النظريات. إذ إن أحاديث الطب وحي من الله تعالى.

قاعدة

الأحاديث النبوية يؤمن ويعمل بها، دون حاجة إلى تجارب المختبرات، والمعارف الحديثة.

فيكفي أن يثبت أن الحديث قاله ﷺ ليأخذ به المسلم ويعتقد صحة ما فيه ويعمل به؛ وهذا ضرورة أنه مسلم منقاد متبع لشرع الله تعالى. وعليه فإن ما تضمنته بعض الأحاديث مما لم تبلغه عقولنا، فإن موقف المسلم منه هو الإيمان به والتسليم له.

قال أحمد بن حنبل (ت ٢٠٤هـ) رحمه الله: "ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقبلها ويؤمن بها، لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره. والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: "لم" و "لا" كيف". إنما هو التصديق والإيمان بها. ومن لم يعرف تفسير الحديث، ويبلغه عقله، فقد كفي، وأحكم له؛ فعليه الإيمان به والتسليم له. مثل حديث "الصادق المصدق" (١)، ومثل ما كان مثله في القدر. ومثل أحاديث الرؤية كلها. وإن نبت عن الأسماع، واستوحش منها المستمع. وإنما عليه الإيمان بها وأن لا يرد منها حرفاً واحداً، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات.

وأن لا يخاصم أحداً. و لا يناظره. و لا يتعلم الجدل؛ فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه ومنهي عنه؛ لا يكون صاحبه - وإن أصاب بكلامه السنة - من أهل السنة، حتى يدع الجدل، ويسلم ويؤمن بالآثار" (٢).

ومن أصول أهل السنة: "أن لا نعارض سنة رسول الله ﷺ بالمعقول؛ لأن الدين إنما هو الانقياد والتسليم، دون الرد إلى ما يوجب العقل؛ لأن العقل ما يؤدي إلى قبول السنة، فأما ما يؤدي إلى إبطالها فهو جهل لا عقل" (٣).

"وأن كل ما سمعه المرء من الآثار مما لم يبلغه عقله، أن عليه التسليم والتصديق، والتفويض والرضا، لا يتصرف في شيء منها برأيه وهواه. ومن فسّر من ذلك شيئاً برأيه وهواه فقد أخطأ وضل" (٤).

(١) لعله يعني حديث ابن مسعود: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه...". أخرجه البخاري في كتاب القدر باب في القدر، وفي بدء الخلق باب ذكر الملائكة، وفي مواضع أخرى، وأخرجه مسلم في كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، حديث رقم (٢٦٤٣). انظر: جامع الأصول (١٠/١١٣-١١٤)، وتعليق المعلق على كتاب أصول السنة لأحمد بن حنبل رواية عبدوس ص ٤٣.

(٢) أصول السنة لأحمد بن حنبل رواية عبدوس بن مالك العطار ص ٤٢-٤٩.

(٣) الحجة في بيان المحجة (٢/٥٠٩).

(٤) الحجة في بيان المحجة (٢/٤٣٥).

وقالوا: "إذا طعن الرجل على الآثار ينبغي أن يُتهم على الإسلام، وأهل السنة يتركون البحث عما لم تحط به عقولهم به من المشكلات، التي لم يتكلم فيها المتقدمون، والأئمة الماضون، ولم يخوضوا فيه، وهم اعلم بالتزويل والتأويل، ومنهم أخذ العلم وبهم يقتدي.

وقالوا: إنما يطالب الله كل إنسان بقدر ما أعطاه من العقل، وليس العقل بالاكْتساب، وإنما هو فضل من الله، يعطي كل إنسان ما أراد، فالخلق يتفاوتون في العقل"^(١).

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: "إن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه فإنه يجب الإيمان به، سواء عرفنا معناه أو لم نعرف؛ لأنه الصادق المصدق، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به، وإن لم يفهم معناه" اهـ^(٢).

وذكر ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) رحمه الله أن عدم الإطلاع على المراد من الخبر لا يقتضي تغليب الحفاظ^(٣).

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/٤٢٨-٤٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٤١/٣) (التدمرية).

(٣) فتح الباري (٤٥/٧).

قاعدة

الكلام في إعجاز السنة فرع عن ثبوتها

ومعنى هذا أن بيان الإعجاز في السنة النبوية يتوقف على النظر في ثبوت هذه الأحاديث، فإن كانت ثابتة نظر فيما تضمنته من إعلام بأمور غيبية تدخل في باب الإعجاز العلمي. وعلى هذه القاعدة يستبعد من هذا الموضوع الأحاديث الضعيفة بأنواعها والأحاديث الموضوعة. فإن قيل: الأحاديث الضعيفة التي وافقت الواقع العلمي ألا تثبت بذلك؟ فالجواب: تصحيح معنى الحديث بموافقه للواقع العلمي شيء غير ثبوت نسبة الحديث عن الرسول ﷺ، فإن هنا أمرين:

الأول: ثبوت نسبة الحديث إلى الرسول ﷺ.

الثاني: صحة معنى الحديث، لموافقه الواقع العلمي.

ويلزم من حصول الأول حصول الثاني. ولا يلزم من حصول الثاني حصول الأول. فليس كل ما صح معناه صار حديثاً ثابتاً عند المحدثين، إذ يحتمل أنه من بقايا أهل الكتاب، أو مما استرقه استرقوا السمع، أو مما حصل بغير ذلك. ومن أمثلة هذا حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... إن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا" (١).

فإن الواقع العلمي يتفق مع هذا الحديث، لكن الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ؛ فعلى هذه القاعدة لا يعتمد هذا الحديث في الإعجاز العلمي في السنة النبوية.

(١) أخرجه البيهقي (٣٣٤/٤)، (١٨/٦)، وأبوداود (٢٤٨٩)، سنن سعيد بن منصور (١٨٦/٢-١٨٧)، قال في التلخيص الحبير (٢٢١/٢): "قال أبو داود: رواه مجهولون. وقال الخطابي: ضعفوا إسناده. وقال البخاري: ليس هذا الحديث بصحيح. ورواه البزار من حديث نافع عن ابن عمر مرفوعاً وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف"، وهو في السلسلة الضعيفة حديث رقم (٤٧٨)، وقال عنه: "منكر" اهـ

قاعدة

عدم المهجوم على معاني الأحاديث دون التأهل العلمي لذلك

وذلك أن لبيان معاني الأحاديث طريق، إذ لم يتبعها الباحث أو شك أن يخرج بالحديث عن وجهه المراد منه. وذلك أن العلم الشرعي إما نقل مصدق أو معنى محقق. فلا بد أن يراعي في بيان معاني الأحاديث الأمور المعتبرة عند أهل العلم عند شرح الحديث^(١)، ومن ذلك :

١- مراعاة طرق تفسير الحديث، على ترتيبها، فيفسر الحديث بالحديث والحديث بقول الصحابي والحديث بقول التابعي، فإن فسر الحديث بحسب الاجتهاد واللغة راعى أن لا يأت بمعنى يضاد المعنى المأثور للحديث، ولا يخرج عنه.

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٠٤هـ) رحمه الله: "الحديث إذا لم تجتمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضاً"^(٢).

قال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) رحمه الله تعالى، في معرض كلام له عن الأحاديث المتعارضة، وكيف ينبغي أن يصنع مع الأحاديث حتى تفهم على وجهها: "تأليف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضم بعضه إلى بعض، والأخذ بجميعه فرض لا يحل سواه"^(٣).

قال عياض (ت ٥٤٤هـ) رحمه الله: "الحديث يحكم بعضه على بعض، ويبين مفسره مشكله". وقال في موضع آخر: "فالحديث يفسر بعضه بعضاً، ويرفع مفسره الإشكال عن مجمله ومتشابهه". وقال عند شرح حديث: "وقد جاء مفسراً في الحديث بما لا يحتاج إلى غيره"^(٤).

قال ابن أبي شامة (ت ٦٦٥هـ) رحمه الله: "ألفاظ الحديث باختلاف طرقه تفسر بعضها بعضاً، ما لم يدل دليل على وهم بعض الرواة، في بعض الألفاظ التي يتوهم فيها تفسير ما أجمله غيره؛ ويحمل على غلط ذلك الراوي لروايته ذلك الحديث بالمعنى الذي فهمه وأخطأ فيه، وإنما المعنى غير ذلك"^(٥).

(١) وقد أفردت هذا الأمر ببحث خاص، عنوانه "علم شرح الحديث وروافده"، وقد أجزى للنشر في مركز بحوث الدراسات الإسلامية، بمعهد البحوث العلمية، في جامعة أم القرى.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع (٢/٢١٢).

(٣) المحلى (٣/٢٤٠).

(٤) هذه النقول الثلاثة عن عياض، من خلال كتابه إكمال المعلم، أوردها صاحب "منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، في إكمال المعلم بفوائد مسلم" حسين بن محمد الشواط ص ١٩٣.

(٥) البسملة (الكبير)، مخطوط، لوحة ٥/أ. (وقد حقق في جامعة أم القرى في رسالتين لنيل درجة الماجستير، القسم الأول منه للطالب محمد زبير أبو الكلام، والقسم الثاني للطالب محمد الصعب).

قال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) رحمه الله: "الحديث إذا اجتمعت طرقه فسّر بعضها بعضاً" اهـ^(١).

وفي طرح التثريب^(٢): "الروايات يفسر بعضها بعضاً، والحديث إذا جمعت طرقه تبين المراد منه" اهـ.

وفي موضع آخر منه: "الروايات يفسر بعضها بعضاً" اهـ^(٣).
وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) رحمه الله: "إن المتعين على من يتكلم على الأحاديث أن يجمع طرقها.

ثم يجمع ألفاظ المتن إذا صحت الطرق.

ويشرحها على أنه حديث واحد؛

فإن الحديث أولى ما فسر الحديث" اهـ^(٤).

وقال رحمه الله: "الأحاديث إذا ثبتت وجب ضم بعضها إلى بعض؛ فإنها في حكم الحديث الواحد، فيحمل مطلقها على مقيدها، ليحصل العمل بجميع ما في مضمونها، وبالله التوفيق" اهـ^(٥).

وقال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: "من فسّر القرآن أو الحديث وتأولّه على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرّف للكلم عن مواضعه. وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام" اهـ^(٦).

فليس لأحد أن يتأول الآية أو الحديث على معنى يخالف مخالفة تضاد المعنى الذي فسّره به صحابة الرسول رضوان الله عليهم.

قال ابن رجب (ت ٧٩٥هـ) رحمه الله: "وفي زماننا (قلت: وفي زماننا أوكد) يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد. وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة، وحدث من انتسب إلى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الأئمة، وانفراده عنهم بفهم يفهمه، أو يأخذ ما لم يأخذ به الأئمة من قبله" اهـ^(٧).

(١) إحكام الأحكام (١/١١٧).

(٢) (١٠٨/٤).

(٣) طرح التثريب (٤/١١٩).

(٤) فتح الباري (٦/٤٧٥).

(٥) فتح الباري (١١/٢٧٠).

(٦) مجموع الفتاوى (١٣/٢٤٣).

(٧) بيان فضل علم السلف ص ٦٩.

ومن أجل هذا الأصل (وهو فهم القرآن العظيم والسنة النبوية على ضوء فهم الصحابة رضوان الله عليهم)، ترى أهل السنة والجماعة، أهل الحديث، لا يخوضون في تفسير القرآن العظيم، وبيان معاني الحديث بمجرد اللغة، والرأي والمعقول؛ بل ينظرون في الآثار، ويجمعون ما جاء عن السلف في مصنفاتهم، ويبنون عليه فقههم واجتهادهم. وعلى خلافهم أهل البدع والأهواء!

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: "وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل (يعني: الإيمان)، عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا على رأيهم، وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة، وهذه طريقة أهل البدع؛ ولهذا كان الإمام أحمد يقول: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس.

ولهذا نجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم، ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة؛ ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة، ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة.

ونجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة، والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب، وكتب الكلام التي وضعها رؤوسهم. وهذه طريقة الملاحدة أيضاً، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار؛ فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم.

وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع "اهـ" (١).

قلت: قال أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ) رحمه الله: "إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام" (٢).

وهجر الأحاديث والآثار السلفية، واعتماد مجرد اللغة والعقل في فهم القرآن والحديث، طريق ركه في هذا القرن أهل الاستشراق، فإن أحوجهم البحث إلى خبر نقلوه من كتب الجاحظ، أو من كتاب الأغاني، أو من العقد الفريد، فإن ضاق عليهم النقل، قالوا: هذا مقتضى العقل!!

فالمسلم الذي يتبع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، يقيد فقهه وفهمه للقرآن العظيم والسنة النبوية بفقه الصحابة رضوان الله عليهم، لا يخرج عنهم، فإن بدى له اجتهد أو نظر في مسألة نظر هل له سلف فيها يأتّم به، وإلا ترك؛ إذ كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع

(١) الإيمان ص ١١٤.

(٢) نقله في مجموع الفتاوى (٢٩١/٢١). وأسندها ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٧٨.

من خلف، وعليكم بالأمر العتيق.

فإذا تقرر معك هذا الأصل، فاعلم أنه ينبغي عليه أمور:

منها: ظهور أهمية أن يقوم الباحث عن معنى الحديث والطلاب لفقهه بجمع أقوال الصحابة رضوان الله عليهم في معناه والنظر في محل وفاقهم ومحل خلافهم، فيلزم محل الوفاق، ولا يخرج عن أقاويلهم في محل الخلاف.

ويسعفه في ذلك مراجعة موطأ مالك، ومصنف ابن أبي شيبة، ومصنف عبدالرزاق، وكتاب الآثار لمحمد بن الحسن الشيباني، وكتاب الآثار لأبي يوسف، ونحوها من المصنفات التي تورد آثار الصحابة.

ومنها: التنبيه على أن الرجوع إلى أقوال الصحابة من طرق تفسير الحديث وبيان معانيه.

ومنها: بطلان تفسير الحديث بمعنى يخرج عن كلامهم رضي الله عنهم، أو يخالفه مخالفة تضاد.

ومنها: أن ضبط ما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير القرآن العظيم، ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام؛ أفضل العلوم، مع تفهمه وتعقله، والتفقه فيه. وأن ما حدث بعدهم من التوسع؛ لا خير في كثير منه، إلا أن يكون شرحاً يتعلق من كلامهم. وأما ما كان مخالفاً لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه^(١).

ومنها: بطلان ما عليه أهل البدع، وبطلان استدلالهم بالقرآن والسنة على بدعهم؛ لأنه تفسير واستدلال مخالف لما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

ومنها: أن يهتم بذكر أقوال السلف حتى ولو كان القول الذي أحدهم فيه ضعف.

قال ابن تيمية رحمه الله: "الصواب ذكر أقوال السلف وإن كان فيها ضعيف، فالحجة تبين ضعفها؛ فلا يعدل عن ذكر أقوالهم لموافقتها قول طائفة من المبتدعة" اهـ^(٢).

ومنها: ضرورة الاهتمام بآثار الصحابة جمعاً وتصنيفاً ودراسة. وقد ظهرت مؤخراً دراسات في فقه بعض الصحابة، كفقه ابن مسعود، وفقه ابن عباس، وفقه عائشة، وفقه أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وأرضاهم، بل ظهر كتاب جامع لفقه السلف، عنوانه: "معجم فقه السلف" للكتاني. لكن يؤخذ على هذه المصنفات مع أهميتها، الأمور التالية:

- أنها لا تهتم بثبوت الرواية عن الصحابي أو التابعي، بل ترى أنه ينسب فيها القول إلى أحد الصحابة مجرد وروده في كتاب حديثي، أو حتى كتاب فقهي، وهذا توسع غير مرضي، إذ لا بد من تحقيق ثبوت الرواية^(٣).

(١) بيان فضل علم السلف ص ٦٧-٦٨.

(٢) مجموع الفتاوى (٤٨/١٤).

(٣) والحقيقة يحتاج الموضوع إلى بحث: هل يشترط في ثبوت الأثر عن الصحابي والتابعي نفس الشروط المشترطة في ثبوت الحديث المرفوع عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ أو يتساهل فيها شيئاً ما؟ فإن كان الجواب بالإيجاب

قال ابن رجب رحمه الله: "ويحتاج من أراد جمع كلامهم (يعني: الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم) إلى معرفة صحيحه من سقيمه، وذلك بمعرفة الجرح والتعديل والعلل. فمن لم يعرف ذلك فهو غير واثق بما ينقله من ذلك ويلتبس عليه حقه بباطله، ولا يثق بما عنده.

كما يُرى من قل علمه بذلك لا يثق بما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن السلف لجهله بصحيحه من سقيمه، فهو لجهله يجوز أن يكون كله باطلاً؛ لعدم معرفته بما يُعرف به صحيح ذلك وسقيمه. "اهـ^(١).

- ترك بعض هذه المصنفات الاهتمام بسلامة الأثر المنقول عن الصحابي من المعارض سواء كان المعارض فيما نقل عن رسول الله ﷺ أو فيما نقل عن الصحابي نفسه، أو فيما نقل عن صحابي آخر غيره.

٢- الوقوف مع النصوص بحسب ظاهرها المراد.

٣- الوقوف على دلالة اللفظ بحسب السياق الذي جاء فيه.

أقول وبالله التوفيق: تفهم نصوص القرآن العظيم والسنة النبوية على ظاهرها، مقيداً بفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين^(٢).

قال الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) رحمه الله، في كلام له على حديث: "فلما احتمل المعنيين؛ وجب على أهل العلم أن لا يحملوها على خاص دون عام إلا بدلالة من سنة رسول الله، أو إجماع علماء المسلمين الذين لا يمكن أن يجمعوا على خلاف سنة له.

قال: وهكذا غير هذا من حديث رسول الله، هو على الظاهر من العام حتى تأتي الدلالة عنه كما وصفت، أو بإجماع المسلمين أنه على باطن دون ظاهر، وخاص دون عام، فيجعلونه بما جاءت عليه الدلالة عليه، ويطيعونه في الأمرين جميعاً"^(٣).

وقال: "... فكل كلام كان عاماً ظاهراً في سنة رسول الله فهو على ظهوره وعمومه، حتى يعلم حديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — بأبي هو وأمي — يدل على أنه إنما أريد بالجملة العامة في الظاهر بعض الجملة دون بعض، كما وصفت من هذا وما كان في مثل معناه"^(٤).

وقال رحمه الله: "والقرآن على ظاهره، حتى تأتي دلالة منه أو سنة أو إجماع بأنه على باطن دون

يُسأل: ما مقدار هذا التساهل وإلى أي مدى؟ علماً بأن الجواب بالنفي له ما يبرره وهو أن احتمال الخطأ في الرواية عن الصحابة وارد كما في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان احتمال الوضع على الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر منه على الصحابة رضي الله عنهم.

(١) بيان فضل علم السلف ص ٦٨.

(٢) الإيمان لابن تيمية ص ٢٧٣.

(٣) الرسالة ص ٣٢٢.

(٤) الرسالة ص ٣٤١.

ظاهر" (١).

قلت: والسنة مثل القرآن العظيم.

وقال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) رحمه الله: "و لا يحل لأحد أن يحيل آية عن ظاهرها و لا خبراً عن ظاهره؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء: ١٩٥). وقال تعالى ذاماً لقوم: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ (المائدة: ١٣). ومن أحال نصاً عن ظاهره في اللغة بغير برهان من نص آخر، أو إجماع [أو من ضرورة حس] (٢)؛ فقد ادّعى أن النص لا بيان فيه، وقد حرّف كلام الله تعالى ووحىه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم عن مواضعه، وهذا عظيم جداً، مع أنه لو سلّم من هذه الكبائر لكان مدعياً بلا دليل. و لا يحل أن يحرم كلام أحد من الناس، فكيف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي هو وحي من الله تعالى؟!.. (٣).

وقال أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) رحمه الله: "إن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها، بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به.

والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تزييله على وجوه شتى. وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر. وإنما قصد أصحابها الإغراب؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومشتاقة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتزييلها على رأيهم" اهـ (٤).

وقال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) رحمه الله: "متى أمكن حمل الشيء على ظاهره أو على قريب من ظاهره؛ كان أولى من حمله على ما لا يشمل العقل، أو على ما يخالف الظاهر جملة" اهـ (٥).

قال محمد الأمين الشنقيطي الحكيني (ت ١٣٩٣هـ) رحمه الله: "التحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وعامة المسلمين: أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في حال من الأحوال بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف

(١) الرسالة ص ٥٨٠.

(٢) ذكر هذا في الفصل في الملل والنحل (٣٣/٢)، (٣/٥).

(٣) النبذة الكافية ص ٣٦-٣٧. وانظر: الفصل في الملل والنحل (١٣٣/٢)، (٣، ٥٠/٣)، (٢٣/٤)، (٢٣/٥)، المحلى (٢٨٩/٩).

(٤) إحياء علوم الدين (٣٧/١).

(٥) البحر المحيط (٣٠٧/٤). وانظر: البحر المحيط (٣٠٨/١)، (٣٩٦/٤)، (٤١١/٦).

عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح" اهـ^(١).

وقال رحمه الله: "وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب، حتى يرد دليل شرعي صارف عنه، إلى المحتمل المرجوح، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول" اهـ^(٢).

قلت: فترك الظاهر دون دليل شرعي صحيح؛ خلاف منهج الصحابة وتابعيهم بإحسان؛ فهو خلاف ما كان عليه الرسول ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم، وتابعيهم بإحسان.

ومن صرف اللفظ عن ظاهره دون دليل صحيح؛ قول بعضهم في معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "تسحروا فإن في السحور بركة"^(٣): أراد به الاستغفار في الأسحار^(٤)!

تنبيه: الظاهر المراد هو ما ترجح أنه المقصود من الكلام أو لم يأت قصد يخالفه، إذ الظاهر في كل لفظ بحسب متعلقه. وضابطه: أن يجري النص على ظاهره الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة، لا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يلحد في أسماء الله تعالى، ولا يقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنة، بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة. فليس كل تفسير للفظ بخلاف ما يظن أنه الظاهر هو صرف اللفظ عن الظاهر، فتنبه^(٥).

قال ابن القيم (ت ٧٥١هـ) رحمه الله تعالى: "إذا عرف هذا فالواجب حمل كلام الله تعالى ورسوله وحمل كلام المكلف على ظاهره الذي هو ظاهره، وهو الذي يقصد من اللفظ عند التخاطب، ولا يتم التفهيم والفهم إلا بذلك، ومُدَّعي غير ذلك على المتكلم القاصد للبيان والتفهيم كاذب عليه" اهـ^(٦).

وقال رحمه الله: "من عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده. والألفاظ لم تقصد لدوائها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان؛ عُمِلَ بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة، أو بإيماءة، أو دلالة عقلية أو قرينة حالية، أو عادة له مطردة لا يُخل بها، أو من مقتضى كماله وكما أسمائه وصفاته، وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد، وترك

(١) أضواء البيان (٤٣٨/٧).

(٢) أضواء البيان (٤٤٣/٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب، ومسلم في كتاب الصوم، باب فضل السحور وتأكيده استحبابه، حديث رقم (١٠٩٥). عن أنس رضي الله عنه. انظر جامع الأصول (٣٦١/٦).

(٤) انظر أمثلة أخرى لصرف النصوص عن ظاهرها دون دليل صحيح إحياء علوم الدين (٣٧/١)، مجموع الفتاوى (٢٣٨/١٣).

(٥) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠٧/٣)، (٣٧٩/١٣—٣٨٠). وهذا التنبيه مستفاد منه.

(٦) إعلام الموقعين (١٠٨/٣—١٠٩).

إرادة ما هو متيقن مصلحته، وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره وشبهه، فيقطع العارف به وبحكمته وأوصافه على أنه يريد هذا، ويكره هذا، ويجب هذا، ويغض هذا.

وأنت تجد من له اعتناء شديد بمذهب رجل وأقواله كيف يفهم مراده من تصرفه ومذاهبه، ويخبر عنه بأنه يفتي بكذا ويقول، وأنه لا يقول بكذا، ولا يذهب إليه لما لا يوجد في كلامه صريحاً، وجميع اتباع الأئمة مع أئمتهم بهذه المثابة.

وهذا أمر يعم أهل الحق والباطل، لا يمكن دفعه، فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة، فإذا دعي إلى غداء فقال: والله لا اتعدى. أو قيل له: نعم! فقال: والله لا أنام. أو اشرب هذا الماء! فقال: والله لا اشرب. فهذه ألفاظ عامة، نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم التي يقطع السامع عند سماعها بأنه لم يرد النفي العام إلى آخر العمر. والألفاظ ليست تعبدية.

والعارف يقول: ماذا أراد؟. واللفظي يقول: ماذا قال؟.

كما كان الذين لا يفقهون إذا خرجوا من عند النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ أَنِفًا﴾ (محمد: من الآية ١٦). وقد أنكر الله سبحانه عليهم وعاب أمثالهم بقوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: من الآية ٧٨)؛ فذم من لم يفقه كلامه. والفقه أحص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد وضع اللفظ في اللغة. وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا، تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم.

وقد كان الصحابة يستدلون على إذن الرب تعالى وإباحته بإقراره وعدم إنكاره عليهم زمن الوحي، وهذا استدلال على المراد بغير لفظ، بل بما عرف من موجب أسمائه وصفاته، وأنه لا يقر على باطل حتى يبينه.

وكذلك استدلال الصديقة الكبرى أم المؤمنين خديجة بما عرفته من حكمة الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته ورحمته أنه لا يخزي محمداً صلى الله عليه وسلم، فإنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق، وأن من كان بهذه المثابة فإن العزيز الرحيم الذي هو أحكم الحاكمين وإله رب العالمين لا يخزيه ولا يسلط عليه الشيطان، وهذا استدلال منها قبل ثبوت النبوة والرسالة، بل استدلال على صحتها وثبوتها في حق من هذه شأنه، فهذا معرفة منها بمراد الرب تعالى، وما يفعله من أسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وإحسانه ومجازاته المحسن بإحسانه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين.

وقد كانت الصحابة أفهم الأمة لمراد نبيها واتباع له، وإنما كانوا يدندنون حول معرفة مراده ومقصوده، ولم يكن أحد منهم يظهر له مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعدل عنه إلى غيره

البتة" اهـ^(١) .

قلت: ولما عدّ ابن القيم رحمه الله أخطاء الظاهرية، ذكر منها: "الخطأ الثاني: تقصيرهم في فهم النصوص فكّم من حكم دلّ عليه النص ولم يفهموا دلّالته عليه، وسبب هذا الخطأ حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ دون إيمائه، وتنبيهه، وإشارته، وعُرفه عند المخاطبين، فلم يفهموا من قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ (الإسراء: ٢٣)، ضرباً ولا سباً ولا إهانة، غير لفظة: "أف" فقصروا في فهم الكتاب، كما قصروا في اعتبار الميزان" اهـ^(٢) .

(١) إعلام الموقعين (١/٢١٨—٢١٩).

(٢) إعلام الموقعين (١/٣٣٨—٣٤٤).

قاعدة

الأحاديث النبوية تسبق المعارف البشرية، والاكتشافات المخبرية.

فهي قد تثبت أشياء لم يتوصل الإنسان إلى معرفتها، وإطلاع البشر قاصر، مقيد بالظاهر، فهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]. وقد يقف الإنسان على بعض الواقع وبعض الحقيقة لا كل الواقع ولا كل الحقيقة، كما حصل في حديث الذباب. عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا وَقَعَ الذَّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ وَالْآخَرَى شِفَاءٌ"^(١).

فقد بادر بعض الناس في أول القرن العشرين إلى إنكاره وردّه وتكذيبه، لما قام عنده أن البحث المخبري يثبت أن الذباب ناقل للأمراض فكيف يأمر الرسول ﷺ بغمس الذباب والحال كذلك؟ فبادروا إلى تكذيب الحديث وردّه، لمخالفته للواقع زعموا.

قلت: وكذبوا وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تلبث مدة حتى اكتشفوا أن الذباب ينقل المرض بأحد جناحيه، وأن الجناح الآخر يقوم بجذب الأوساخ المسببة للمرض إليه، ففي أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، فغمسه في الإناء إذا سقط فيه تمكين الجناح الثاني بالقيام بجمع أوساخ الجناح الآخر، وهذا ما أخبر به الرسول ﷺ.

والمقصود التنبيه على قصور البشر في جوانب البحوث المخبرية والاكتشافات، وأن علمهم إنما هو لظاهر الأمور لا لحقيقتها وبواطنها، والمسلم يسلم لله تعالى بعلمه ويطمئن إلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، والتسليم لما جاءه عنه عليه الصلاة والسلام.

وهذا ابن القيم (ت ٧٥١هـ) رحمه الله يقرر دلالة الحديث في عصره ذاك قبل المكتشفات العلمية، فيقول: "هذا الحديث فيه أمران: أمر فقهي وأمر طبي. ثم قال: وأما المعنى الطبي فقال أبو عبيد: معنى "امقلوه": اغمسوه ليخرج الشفاء منه كما خرج الداء. يقال للرجلين: هما يتماقلان، إذا تغطا في الماء.

واعلم أن في الذباب عندهم قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه، وهي بمنزلة السلاح فإذا سقط فيما يؤذيه اتقاه بسلاحه فأمر النبي ﷺ أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله سبحانه في جناحه الآخر من الشفاء، فيغمس كله في الماء والطعام فيقابل المادة السمية المادة النافعة فيزول ضررها؛ وهذا طب لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارج من مشكاة النبوة ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفق يخضع لهذا العلاج، ويقر لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق وأنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه حديث رقم (٣٣٢٠).

مؤيد بوحى إلهي خارج عن القوى البشرية.

وقد ذكر غير واحد من الأطباء : أن لسع الزنبور والعقرب إذا ذلك موضعه بالذباب نفع منه نفعا بينا، وسكنه، وما ذاك إلا للمادة التي فيه من الشفاء، وإذا ذلك به الورم الذي يخرج في شعر العين المسمى شعرة بعد قطع رؤوس الذباب أبرأه" اهـ^(١).

ومن فروع هذه القاعدة : أن من أفضل ما يقرر به الإعجاز في السنة النبوية هو أن يذكر ما جاء في السنة ويشار إليه قبل أن يكتشف، وتكون الإشارة النبوية هي مفتاح البحث والدرس في العلم التجريبي، لا العكس.

إذ من القصور الذي يقع فيها بعض الناس عند نظره في موضوع الإعجاز العلمي في السنة النبوية أنه يجعل نفسه تابعاً لما يأت من عند الغربيين فإذا جاءه خبر اكتشاف ما، بادر إلى النظر في الأحاديث ليرى ما فيها حول هذا الموضوع، وقد يتكلف مع هذا في ذلك، فيحصل له خطأ من جهتين:

الجهة الأولى : من جهة تكلفه لحمل الأحاديث على الإعجاز العلمي.

الجهة الثانية : من جهة كونه تابعاً للغرب في ذلك.

والذي ينبغي أن يبادر المسلم دائماً إلى عرض ما في الدين، ويشير إلى ما في الأحاديث من أسرار يلفت النظر إلى البحث فيها. فيكون المسلم متبوعاً لا تابعاً، فلماذا لا يركز نظره في السنة ويستخرج منها دلائل على أمور لم يكتشفها العلم بعد، فيشير إليها ويلفت الأنظار إلى ما فيها من أمور، وإن استطاع الإعجاز إلى بعض الباحثين في المجالات التطبيقية، ليركز في بحثه على هذا الجوانب الذي ظهر له أن السنة تشير إليها، فيسبق إلى الاكتشاف بدلالة السنة النبوية له، وهذا خير من أن ينتظر أولئك، إذ الإسلام يعلمو ولا يعلم عليه.

والملاحظ على الدراسات التي كتبت في مجال الإعجاز العلمي في القرآن العظيم والسنة النبوية أنها تتسابق إلى إبراز التوافقية بين ما في القرآن العظيم والسنة النبوية من جهة وبين ما توصل إليه العلم التجريبي، في سباق محموم قد يخرج بالمقصود عن مساره، فيقتصر موضوع البحث عند هؤلاء على إثبات التوافق بين القرآن والسنة من جهة وبين العلم الحديث من الجهة الأخرى، وأن العلم لا يعارض النصوص الشرعية، بل إن (العلم يدعو إلى الإيمان)، — (الله يتجلى في عصر العلم).

فيقف البحث عند هؤلاء عند هذه النقطة ، ويحق للناظر في تلك الدراسات أن يتساءل المؤمن بالله عزوجل رباً ومحمد ﷺ رسولاً عن الفائدة التي تعود عليه من هذا النمط من الدراسات؟! ويزول مثل هذه التساؤل إذا اتبعنا في دراسة جانب الإعجاز العلمي والطبي في السنة سبيل المبادرة

(١) زاد المعاد (٤/١١٠-١١٣).

والمتابعة والدلالة في البحث ، عن طريق توجيه الدراسات العلمية التجريبية إلى الجوانب التي أشارت إليها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية؛ فإن الإسلام يتحدى بحقائقه التي سبق فيها العلم التجريبي لا بمجرد موافقة العلم له، وعدم مخالفة ما فيه لحقائق العلم التجريبي!

قاعدة

لم تسق الأحاديث النبوية لبيان الأمور العلمية والطبية

فالسنة ليست كتاب فيزياء أو كيمياء أو فلك أو طب، أو هندسة أو غير ذلك. قال الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) رحمه الله: "ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم العرب يبني عليه قواعد:

منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين: من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها.

وهذا إذا عرضناه على ما تقدم (يعني: ما قرره من أمية الشريعة) لم يصح. وإلى هذا فإن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى [ما كان للعرب اعتناء به من علوم الناس، بحسب أميتهم]^(١)، وما ثبت فيه من أحكام التكليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك. ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة؛ إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم. وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا.

-
- (١) وقد ذكر الشاطبي في الموافقات (٢/٧١-٧٩) هذه العلوم التي كانت عند العرب فذكر ما محصلته مع تصرف: ١- علم النجوم وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وتعرف منازل سير النيرين وما يتعلق بهذا المعنى. وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة. ٢- علم الأنواء، وأوقات نزول المطر، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، فبين الشرع حقها من باطلها. ٣- علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، وفي القرآن ما هو كثير وكذلك في السنة، ولكن القرآن احتفل في ذلك، وأكثر من الإخبار بالغيوب التي لم يكن للعرب بها علم، لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون. ٤- علم العيافة، والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصى، والطيرة، وأكثر هذه العلوم هو من الباطل، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه، كالكهانة والزجر وخط الرمل، وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب؛ فإن الكهانة والزجر كذلك. وأكثر هذه الأمور تخص على علم الغيب من غير دليل، فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض وهو الوحي والإلهام، وأبقى للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة وهو الرؤيا الصالحة، وأتمودج من غيره لبعض الخاصة، وهو الإلهام والفراصة. ٥- علم الطب، فقد كان في العرب منه شيء لا على ما عند الأوائل بل مأخوذ من تجارب الأميين، غير مبني على علوم الطبيعة التي قررها الأقدمون. فجاءت الشريعة بأصول حفظ الصحة وبرء المرض، وأبطلت ما هو باطل مما كانوا عليه، كالتداوي بالخمر وبالخمر وبالحرم والسحر والرقى الشريكة، وأثبتت ما هو حق. ٦- التفنن في علم البلاغة، ووجوه الفصاحة. ٧- ضرب الأمثال.

وأما ما يرجع إلى مكارم الأخلاق، فهو من أول ما خوطبوا به، وأدرج فيه من النهي عن الإشراك والتكذيب بأمر الآخرة، ما هو المقصود الأعظم. وأبطل ما كانوا يعدونه كرمًا وحسنًا وليس كذلك.

نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب، أو ما يني على معهودها، مما يتعجب منه أولوا الألباب، و لا تبلغه ادراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره. أمّا أن فيه ما ليس من ذلك فلا.

وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: من الآية ٨٩)، وقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: من الآية ٣٨) ونحو ذلك. وبفواتح السور وهي مما لم يعهد عند العرب. وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء.

فأمّا الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: من الآية ٣٨): اللوح المحفوظ. ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأمّا فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً، كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك.

وأمّا تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يدعه أحد ممن تقدّم فلا دليل فيها على ما ادّعوا. وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت. فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه.

ويجب الاقتصار - في الاستعانة على فهمه - على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه، والله اعلم وبه التوفيق" اهـ^(١).

قلت: وما ثبت للقرآن يثبت للسنة، إذ أنها مثل القرآن، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"^(٢).

وإهمال هذه القاعدة يوقع في المبالغة والغلو في هذا المجال. وهذا أمر خطير، لا شك أن في القرآن العظيم والسنة النبوية آيات ودلائل على نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولكنهما في الأصل للهداية؛ قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

(١) الموافقات (٢/٧٩-٨٢).

(٢) حديث صحيح. سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ولم يتزل القرآن العظيم و لا السنة النبوية لتقرير حقائق القوانين الكونية، وما يتعلق بها، نعم يأت فيهما ذلك عرضاً لا غرضاً، مما التشريع بصدده فيكون تشريعاً وهداية وإعجازاً. وينبغي على هذه القاعدة أمور:

منها : أن السنة النبوية بله القرآن العظيم ليس شاملاً لكل الحقائق العلمية. ومنها : أن ذكر الأمر الكوني في السنة النبوية إنما يأتي على وجه لا يقرر فيه صورة متكاملة عنه، لأن بيان هذه الحقائق العلمية ليست موضوع القرآن العظيم و لا السنة النبوية؛ فالقضية العلمية تأتي عرضاً لا غرضاً^(١).

وعليه فقد جانب الصواب من يتعامل مع القرآن العظيم و السنة النبوية وكأهما كتاب من كتب العلم التجريبي، وينتظر أن يجد فيهما بحث كل قضايا العلم التجريبي.

فإن قيل: وأحاديث الطب هل الحال فيها أنها بدون تفصيل؟

فالجواب : أحاديث الطب ترشد إلى ما فيه العلاج والشفاء بدون تفصيلات العلم التجريبي، إذ الغرض فيها هو الدلالة على محل الشفاء، وذكر أصول حفظ الصحة.

ومن فروع هذه القاعدة : مراعاة موضوعات الإعجاز العلمي في الحديث مع ملاحظة أن الأحداث الكونية مرتبطة بعمل الناس وكسب أيديهم.

ولعل من هذا القبيل ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: "أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؛ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُتُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا . وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

(١) وقد سبقت الإشارة إلى ذلك أثناء ذكر أمثلة للإعجاز العلمي والطبي في السنة النبوية.

وَمَا لَمْ تَحْكُمُ أَيْمَتَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ^(١).

ومن فروعها: بيان أن ثمة الوقوف على هذا النوع من الأحاديث بالنسبة للمسلم هي زيادة

(١) ورد هذا الحديث، أو بعض فقرات منه، من رواية ابن عمر، وابن عباس، وبريدة، وعمر بن العاص. أما رواية عبد الله بن عمر؛ فقد أخرجها ابن ماجة في كتاب الفتن، باب العقوبات، حديث رقم (٤٠٦٨)، والحاكم في المستدرک (٧٤٩/٥)، تحت رقم (٨٦٦٧)، وأبو عمرو الداني في كتاب السنن الواردة في الفتن (٦٩١/٣)، تحت رقم (٣٢٧)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٤٨٦/٦)، تحت رقم (٣٠٤٢)، واللفظ المذكور له. قال البيهقي عقب روايته: "وروي في ذلك أيضا عن هذيل عن هشام بن خال المازني عن ابن عمر" اهـ وحسن الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة تحت الحديث رقم (١٠٦) إسناده الحاكم.

والرويان في مسنده (٢٨٥/٢)، تحت رقم (١٤٢٣)، من طريق ابن وهب حدثني عثمان بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة من أصحابه فأثاه رجل من على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الأنصاري: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقا؟ قال: فأيهم أكيس؟ قال: أكثرهم ذكرا للموت وأحسنهم له استعدادا فأولئك الأكياس ثم سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم قال: يا معشر المهاجرين الأولين خمس خصال إن إدركتكم وأعوذ بالله أن تدرككم: ما عمل قوم بالفاحشة فظهرت فيهم واستعلت إلا ابتلاهم الله بالطاعون، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالسنين وشدة المؤونة وجور الأئمة، وما منع قوم صدقة أموالهم إلا منعهم الله المطر حتى لولا البهائم لم يسقوا المطر، وما نقض قوم عهد الله وعهد رسوله إلا بعث الله عليهم عدوا من غيرهم يأخذون بعض ما كان في أيديهم، وما من قوم لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم".

قلت: وفي السند عثمان بن عطاء ضعيف، وأبوه في حفظه شيء.

والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٤٨٧/٦)، تحت رقم (٣٠٤٢)، من طريق ليث عن أبي محمد الواسطي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: كيف أنتم إذا خمس وأعوذ بالله أن أو تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط فعلم بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم تمطروا وما بنحس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله عز وجل إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما في أيديهم وما عطلوا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم. ثم قال لعبد الرحمن بن عوف تجهز فغدا عليه وقد اعتم وأرسل عمامة نحو من ذراع فأجلسه بين يديه ونقض عمامته بيده فعممها إياه وأرسل منها نحو من أربع أصابع ثم قال: هكذا يا ابن عوف ثم سرحه". قال البيهقي عقبه: "إسناده ضعيف" اهـ.

أما رواية ابن عباس؛ فقد أخرجها البيهقي في السنن الكبرى (٣٤٦/٣)، وفي الجامع لشعب الإيمان (٤٨٤/٦)، تحت رقم (٣٠٣٩)، من طريق الفضل بن موسى الشيباني عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس قال: "ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم. ولا فشئت الفاحشة في قوم إلا أخذهم الله بالموت. وما طفف قوم الميزان إلا أخذهم الله بالسنين. وما منع قوم الزكاة إلا منعهم الله القطر من السماء. وما جار قوم في حكم إلا كان الداء بينهم أظنه قال والقتل".

قال البيهقي في الجامع لشعب الإيمان عقب إيراده: "كذا قال عن ابن عباس موقوفا" اهـ.

وقد صحح الألباني إسناده هذه الرواية، في سلسلة الأحاديث الصحيحة تحت الحديث رقم (١٠٧).

وساقه ابن أبي شيبة في المصنف (١١٦/١٥)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٤٨٥/٦)، تحت رقم (٣٠٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٩/٥)، من طريق عكرمة عن ابن عباس قال كعب الأحبار: إذا رأيت القطر قد منع فاعلم أن الناس قد منعوا الزكاة فمنع الله ما عنده. وإذا رأيت السيوف قد عريت فاعلم أن حكم الله قد ضيع فانتقم بعضهم من بعض. وإذا رأيت الزنا قد فشا فاعلم أن الربا قد فشا. هذا لفظ ابن أبي شيبة. =

إيمانه وبالتالي الإكثار من العمل الصالح،^١ ويتحصل ذلك بطلب العلم الشرعي. أما استغراق

ولفظ البيهقي : "إذا رأيت المطر قد قحط فاعلم أن الزكاة قد منعت وإذا رأيت السيوف قد عريت فاعلم أن حكم الله تعالى قد ضيع فانتقم بعضهم ببعض وإذا رأيت أن الربا قد ظهر فاعلم أن الزنا قد فشا". ولفظ أبي نعيم: "عن عكرمة قال: التقى ابن عباس وكعب فقال كعب: يا ابن عباس إذا رأيت السيوف قد عريت، والدماء قد أهرقت؛ فاعلم أن حكم الله قد ضيع، وانتقم الله لبعضهم من بعض. وإذا رأيت الوباء قد فشا، فاعلم أن الزنا قد فشا، وإذا رأيت المطر قد حبس فاعلم أن الزكاة قد حبست، ومنع الناس ما عندهم ومنع الله ما عنده".

تنبيهان : الأول : وقع في المصنف السند هكذا "وكعب عن سفيان عن أبيه عن عكرمة عن أبيه عن ابن عباس قال كعب الأحبار"، وأظن الصواب ما أثبتته، لأنه موجود هكذا عند البيهقي في الجامع، وهو قد أخرج من طريق سفيان به. الثاني : وقع عند أبي نعيم في لفظ الرواية هكذا "وإذا رأيت الوباء قد فشا، فاعلم أن الزنا قد فشا"، ووقع في رواية البيهقي: "وإذا رأيت أن الربا قد ظهر فاعلم أن الزنا قد فشا"، وانقلبت اللفظة في ابن أبي شيبة - إما من الناسخ أو الطابع - فصارت: "وإذا رأيت الزنا قد فشا فاعلم أن الربا قد فشا". ولعل رواية أبي نعيم هي الصواب، والله اعلم.

و الطبراني في المعجم الكبير (٤٥/١١)، تحت رقم (١٠٩٩٢)، من طريق إسحاق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن الضحاک بن مزاحم عن مجاهد وطاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خمس بخمس قالوا: يا رسول الله وما خمس بخمس قال: ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر".

وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة تحت الحديث رقم (١٠٧)، عن طريق هذه الرواية: "هذا إسناد ضعيف، يستشهد به" اهـ قلت: في السند إسحاق بن عبد الله بن كيسان، فيه وفي أبيه ضعف، والرفع منكر إذ خلاف رواية الثقات للحديث عنه موقوفاً.

وأبو عمرو الداني في كتاب السنن الواردة في الفتن (٦٨٦/٣)، تحت رقم (٣٢٢)، من طريق شعبة عن الحكم بن عتيبة عن الحسن بن مسلم عن ابن عباس، قال: "ما ظهر البغي في قوم قط إلا ظهر فيهم الموتان، ولا ظهر البخس في الميزان والقفيز والمكيال إلا ابتلوا بالسنة ولا ظهر نقض العهد في قوم إلا أديل منهم عدوهم".

وعند مالك في الموطأ في كتاب الجهاد باب ما جاء في الغلول، تحت رقم (٩٩٨)، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: "مَا ظَهَرَ الْغُلُولُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَلَا فُشَا الزَّيْنَةَ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا قُطِعَ عَنْهُمْ الرِّزْقُ وَلَا حَكَمَ قَوْمٌ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِلَّا فُشَا فِيهِمُ الدَّمُ وَلَا خَتَرَ قَوْمٌ بِالْعَهْدِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَدُوَّ".

وتمام في فوائده (الروض البسام في ترتيب وتخريج فوائد تمام ١٣٠/٢)، تحت رقم (٥٢٠)، من طريق مغيرة بن مغيرة عن أبيه عن الأوزاعي عن الزهري عن ابن المسيب عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا فشا في هذه الأمة خمس حل بها خمس: إذا أكلت الربا كان الزلزلة والخسف، وإذا جاز السلطان قحط المطر، وإذا تعدى على أهل الذمة كانت الدولة، وإذا منعت الزكاة ماتت البهائم، وإذا كثر الزنا كان الموت".

قال الذهبي في الميزان (١٦٥/٤): "مغيرة بن مغيرة الربيعي، لا أعرفه، روى عبد الله بن محمد الرملي الحافظ عنه، قال: سمعت أبي... - فذكر الخبر، ثم قال: - هذا خبر منكر جداً، لا يحتمله الأوزاعي" اهـ قال صاحب البدر التمام: "وأبوه مثله، وشيخ تمام لم أقف على ترجمته." اهـ

أما رواية بريدة؛ فقد أخرجها ابن أبي حاتم في كتاب العلل (٤٢٢/٢)، والحاكم في المستدرک على الصحيحين =

الجالس والأوقات للعامة بهذه الموضوعات^١ فإن الشرع إنما جاء بذكر هذه الأمور في ثنايا بيانه

= (٢/٤٦١، تحت رقم ٢٦٢٣)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٦/٤٨٥، تحت رقم ٣٠٤٠)، وفي السنن الكبرى (٣/٣٤٦)، من طريق أبي حاتم، وفي السنن الكبرى (٩/٢٣١)، من طريق الحاكم، وابن عبد البر في التمهيد (٢١/١٩١)، من طريق أحمد بن عمرو البزار، جميعهم من طريق عبيد الله بن موسى عن بشير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، واللفظ كما عند البيهقي في الشعب "قال النبي ﷺ: "ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم وما ظهرت فاحشة في قوم قط إلا سلط الله عليهم الموت ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر".

وقال الحاكم عقبه: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه" اهـ.

وقال البيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٣١)، عقب إيراده للحديث: "خالفه الحسين بن واقد فرواه عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله أتم منه وروي في ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم" اهـ.

وأخرجها الطبراني في الأوسط (٥/٢٦)، تحت رقم ٤٥٧٧، من طريق سليمان بن موسى أبو داود الكوفي عن فضيل بن مرزوق عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين". وقال عقبه: "لم يرو هذا الحديث عن فضيل بن مرزوق إلا سليمان بن موسى، تفرد به: مروان بن محمد الطاطري" اهـ.

و في الأوسط (٧/٤٠)، تحت رقم ٦٧٨٨، من طريق سليمان بن موسى الكوفي عن فضيل بن غزوان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين" وقال عقبه: "لم يرو هذا الحديث عن فضيل بن غزوان إلا سليمان بن موسى تفرد بن مروان ابن محمد" اهـ. قلت: وهذه رواية شاذة، تفرد بها سليمان بن موسى، وفيه لين، وخالف ما رواه غيره.

أما رواية عمرو بن العاص؛ فقد أخرجه أحمد في (المسند ٢٩/٣٥٦، تحت رقم ١٧٨٢٢، الرسالة)، من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن سليمان عن محمد بن راشد المرادي عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة وما من قوم يظهر فيهم الرشأ إلا أخذوا بالرعب" قال محققو المسند: "إسناده ضعيف جدا" اهـ.

قلت: رواية عبيد الله بن موسى عن بشير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن رسول الله ﷺ، معلولة، وفي السند بشير بن المهاجر، قال عنه أحمد لما ذكر عنده: "منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فإذا هو يجيء بالعجب"، وقال أبو حاتم: "بشير بن مهاجر يكتب حديثه ولا يحتج به".

قال ابن أبي حاتم في العلل (١/٢١٧): "سألت أبي عن حديث رواه عبيد الله بن موسى عن بشير بن مهاجر عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر ولا نقص قوم المكيال... الحديث، قال أبي: رواه حسين بن واقد عن ابن بريدة عن ابن عباس موقوفاً وهو أشبه" اهـ وفي علل ابن أبي حاتم (٢/٤٢٢): "سألت أبي عن حديث رواه علي بن الحسن بن شقيق عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس قال: "ما نقض قوم العهد إلا أظهر الله عليهم عدوهم وما جار قوم في الحكم إلا كان القتل بينهم وما فشت الفاحشة في قوم إلا أخذهم الله بالموت وما طفف قوم في الميزان إلا أخذهم الله بالسنين وما منع قوم الزكاة إلا منعهم الله القطر من السماء"، قال أبي: حدثنا به عبيد الله بن موسى عن بشير بن مهاجر عن ابن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو وهم عن ابن عباس أشبه" اهـ.

رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه، يحتمل أن تكون محفوظة، ويحتمل أن يكون بشير بن مهاجر سلك فيها الجادة، [وانظر بذل الماعون في فضل الطاعون ص ٢١٢]، ويترجح هذا الثاني بكلمة أبي حاتم رحمه الله، فالرواية عن ابن بريدة عن أبيه عن رسول الله ﷺ وهم، فلا يتقوى بها، والمعروف رواية ابن بريدة عن ابن عباس ﷺ.

ورواية ابن عباس ﷺ أوضحت طرقها أن الحديث مما أخذه ابن عباس عن كعب الأحبار.

والرواية عن ابن عمر ﷺ هي المعول عليها في رفع الحديث، ولا يبعد أن الخبر تلقاه ابن عباس عن كعب

للأحكام وأمور التشريع، لا على وجه الاستقلال^(١).

الأخبار، وتلقاه كعب عن الصحابة، وحدث به ابن عباس، أو هو مما اتفقت فيه التوراة المحرفة مع ما جاء في شرعنا والله اعلم.

(١) ومما له علاقة بهذا أن لا يبرر الواقع بها، بمعنى إذا أخبر الرسول بأمر في المستقبل فلا نعطل شرع الله مبررين ذلك بكونه مما أخبر به صلى الله عليه وسلم أنه سيكون، فإن الله قدر الكفر كوناً ونحن مأمورون شرعاً بالبعد عنه، ودعوة الناس إلى الإيمان، فلا يترك جهاد الدعوة والطلب بدعوى أن الكفر مقدر كوناً.

وكذا الحال في أحاديث أشراف الساعة فإن ما أخبر الرسول ﷺ بكونه في آخر الزمان لا يمنعنا من السعي لتطبيق ما أمر به الشرع، وهذا المعنى معلوم من الشرع، ومما يدل عليه حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل". أخرجه أحمد في المسند (٢٠/٢٥١، ٢٩٦، حديث رقم ١٢٩٠٢، ١٢٩٨١ الرسالة). وصحح محققو المسند سنده على شرط مسلم.

الخاتمة

انتهت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج والتقارير، وهي التالية:

- أن دراسة الإعجاز العلمي في السنة النبوية تدخل تحت باب الإخبار بالمغيبات.
- أن الإعجاز العلمي لا تطلب دراسة على وجه الاستقلال، بعيداً عن كونه مندرجاً تحت أصل الإخبار بالمغيبات، لأن ذلك لا يناسب كون الأمة أمة.
- أن السنة مثل القرآن، في كونه وحياً هادياً، معجزاً، وجميع وجوه الإعجاز في القرآن تأتي معنى في السنة بما يناسب حال السنة النبوية.
- أن السنة ليست كتاب فيزياء، أو هندسة أو كيمياء، أو جيولوجيا، أو غير ذلك من العلوم.
- أن المبادرة إلى الاكتشاف استهداء بالنصوص في القرآن والسنة، هو الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه الحال، بدلاً من أن ننتظر حتى يكشف الغرب شيئاً ومن ثم ننظر في نصوص الشرع!
- أن لا يجوز الهجوم على معاني الأحاديث دون التأهل العلمي لذلك.
- أن الكلام عن إعجاز السنة فرع عن ثبوتها.
- أن الإيمان بالسنة النبوية ينطلق من إيمان المسلم وعقيدته، و لا يحتاج إلى مختبرات وتجارب.
- أن أحاديث الرسول ﷺ الأصل فيها أنها وحى، سواء كانت في الطب أو غيره، إلا ما حرج بالدليل.

هذا، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

الملحق

مقالات في الإعجاز العلمي

في هذا الملحق سأورد بعض ما وقفت عليه من مقالات تتعلق بالإعجاز العلمي في السنة النبوية.
(١) المقال الأول ، نشر في العدد السادس من مجلة الإعجاز العلمي ، مجلة فصلية تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة . رابطة العالم الإسلامي.
عودة جزيرة العرب مروجاً وأثراً

بقلم مهندس: جمال عبدالمنعم الكومي

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : «لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأثراً».

الحالة الراهنة لشبه الجزيرة العربية:

وأرض العرب المقصودة في كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — هي شبه الجزيرة العربية، التي تقع ضمن حزام الصحراء الممتد بين خطي عرض 15°، 30° شمالي خط الاستواء وجنوبه.

والرطوبة النادرة والجفاف الشديد هما أبرز السمات المميزة للمناطق الصحراوية بصفة عامة، فقد تشهد بعض الجهات الداخلية وخاصة الربع الخالي في شبه الجزيرة العربية سنوات بطولها دون أن تتلقى قطرة مطر واحدة (دكتور صلاح الدين بحيري «جغرافية الصحارى العربية» ص ١٣، ١٢)، وهذا بدوره يكون له أثر على الغطاء النباتي والزراعي، حيث ينتشر اللون الأصفر — لون الرمال القاسية الملتهبة — ولا يستثنى من ذلك إلا بعض المناطق الساحلية التي تسقط عليها بعض الأمطار، والواحات المتناثرة بالقرب من الآبار والعيون.

وقد وصف المولى — عز وجل — بعض أرض العرب وصحرائها، حين قال في كتابه الكريم على لسان سيدنا إبراهيم — عليه السلام: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم} (إبراهيم: ٣٧) وهو وصف يدل على حالة الجذب والقفر والجفاف الذي تعيشه شبه الجزيرة العربية منذ عهد إبراهيم الخليل — عليه السلام.

فإذا كانت هذه هي السمات العامة لمعظم أراضي شبه الجزيرة العربية، فكيف يقول النبي — صلى الله عليه وسلم — إنها ستصبح أرض مراع وأثار في آخر الزمان؟! لاشك أن معنى الحديث غريب وعجيب، يصعب على العقل فهمه أو تفسيره.

والمعنى الظاهر للحديث: أن صحراء شبه الجزيرة العربية ستغطيها المروج — أي المراعي — والأثار، في آخر الزمان قبل قيام الساعة، وقوله: «حتى تعود» يدل على أنها كانت كذلك في وقت سابق، وأنها ستعود إلى حالتها الأولى، وأن طبيعتها الصحراوية الجافة هي حالة طارئة عليها..

فالحديث في الواقع يتضمن حقيقة ونبوءة وإعجازاً خبيراً وآخر علمياً.

فالحقيقة: أن شبه الجزيرة العربية كانت في الماضي أرضاً ذات مراع وأثار، ثم طرأت عليها الحالة الصحراوية الراهنة..

والمعجزة الإخبارية: أن الأثار والمستطحات الخضراء ستعود ثانية إلى شبه الجزيرة العربية في آخر الزمان قبل قيام الساعة..

وقد استغرق هذا الحديث أربعة عشر قرناً من الزمان لكي يفهم على هذا الوجه الصحيح، حدث ذلك بعد التقدم الهائل في علوم الجيولوجيا والتاريخ المناخي والفلك وغيرها، وبعد العديد من أعمال الحفر والتنقيب بصحراء شبه الجزيرة العربية، والتي تثبت لغير المسلمين — بما لا يدع مجالاً للشك — صدق النبي — صلى الله عليه وسلم — والإعجاز العلمي في هذا الحديث، وسنعرض لهذه الحقيقة العلمية التاريخية والأبحاث والاكتشافات التي تؤكد، كما سنعرض الدلالات العلمية التي تقيم الحجة والبينة بنبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — على من علم هذا وعرفه.

— الحقيقة العلمية

شبه الجزيرة العربية في الماضي

«أرض ذات مراعي وأنهار»

تؤكد المكتشفات العلمية الحديثة ما قاله النبي — صلى الله عليه وسلم — في هذا الحديث المعجز، من أن شبه الجزيرة العربية لم تكن صحراء بالمعنى المتعارف عليه حالياً، بل كانت أرضاً خضراء تتدفق فيها الأنهار، وتترقق في بعض نواحيها البحيرات الواسعة، وتنهض في ما أصبح بادية بعد ذلك — مدن على حظ كبير من التقدم الزراعي والحرفي.

شبه الجزيرة العربية في الماضي

كان ذلك في مرحلة متقدمة من حقبة جيولوجية تُعرف باسم «الحقبة البليستوسينية» كما يقول علماء الجيولوجيا (يقسم العلماء التاريخ الجيولوجي للأرض إلى أزمنة، وفقاً للخصائص العامة للحياة في كل زمن، وينقسم كل زمن إلى عصور تبعاً لأنواع وأشكال الحياة التي وجدت فيه، والتي تعرف من الحفريات التي ترسبت في طبقات الصخور التابعة لذلك العصر) «pleistocenc» والتي بدأت قبل أكثر من مليون سنة، وانتهت منذ عشرة آلاف سنة خلت، وخلال هذه الحقبة من الزمن ساد الأرض مناخ بارد وغطت الكتل والمسطحات الجليدية الضخمة الأجزاء الشمالية من أوروبا وأمريكا الشمالية — حتى وصل الجليد إلى شمال فرنسا — فيما أطلق عليه العصور الجليدية «Glacials» إلا أن الجليد كان يذوب خلال الفترات الأدفأ — والتي عرفت باسم «الفترات بين الجليدية Interglacials» — فتحسن الأحوال المناخية تسحناً كبيراً (نورمان ويلن ودافيد بيز «أوائل البشر في شبه الجزيرة العربية» مجلة الثقافة العالمية، عدد ٥٩ نقلاً عن مجلة (Aramco World, August ١٩٩٢)).

وكان انتشار المسطحات الجليدية في الأجزاء الشمالية — أثناء العصور الجليدية — يؤثر في مناخ الأرض فيؤدي إلى زحزحة نطاق المطر إلى الجنوب، فتدخل شبه الجزيرة العربية والصحراء الكبرى بشمال إفريقيا في نطاق الرياح الغربية الممطرة، والتي تهب الآن على غرب أوروبا — فيؤدي ذلك إلى ازدهار تلك الصحراوات وامتلائها بالأنهار والوديان الخصبة (دكتور إبراهيم أحمد رزقانة «الجغرافيا التاريخية الطبيعية»: ص ١٤٦ بتصرف)

وفي فترات الدفء بين العصور الجليدية تتحرك نُطقُ الأمطار إلى الشمال فتصبح شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا ضمن نطاق الرياح التجارية ويسودها مناخ مشابه لمناخها اليوم (تحتل الصحارى العربية الجزء الأكبر من نظام كوكبي يعرف بـ «صحارى الرياح التجارية» Trade Wind Deserts وهو نظام يتسم بالجفاف الدائم.. فالقطاع الفعال من التوبوسفير، ما بين ٢ — ٦ كيلومترات فوق سطح البحر — وهو القطاع الفعال فيما يتعلق

بنشأة الاضطرابات الجوية — يشغله حزام متصل من الضغط المرتفع الدائم على مدار السنة، فوق أرض الصحراء والمستطحات المائية على السواء، وكما هو معروف، تقتزن حالات الجفاف بصفة عامة بظروف الضغط المرتفع.. وعلى هذا فالصحراء الكبرى والصحراء العربية بوقوعها ضمن نطاق التجاريات تصنف كصحارى مناخية، أي كنتيجة مباشرة لميكانيكا الدورة الكوكبية العامة حول الأرض. يتصرف من «جغرافية الصحارى العربية» (١٤٧، ١٤٩).

واستنادا إلى أبحاث الجيولوجي الأمريكي هال ماكور — في رسالة دكتوراة عن الربع الخالي — فإن البحيرات كانت تغطي هذه المنطقة الصحراوية خلال العصور المطيرة (العصور الجليدية) وأما ظهرت مرتين، الأولى قبل ٣٧٠٠٠ إلى ١٧٠٠٠ سنة، والثانية بين ١٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة خلت (مجلة آفاق علمية، عدد (٤٢): ص ١٥).

البعثات الجيولوجية:

هذه الصورة الزاهية لشبه الجزيرة العربية، بأثمارها الرقراق، وأشجارها الوارفة، والتي كانت شائعة في الأدبيات التراثية (نبه التراث الأدبي واللغوي العربي إلى ما شهدته شبه الجزيرة العربية من تغيرات مناخية.. فإذا تتبعنا أسماء الحيوان عند العرب هالتك تلك الأسماء العديدة لحيوان واحد كالأسد مثلا، وهذا يؤكد أن تلك الأسماء قد تعددت بحكم تكاثر ذلك الحيوان وتواجده بينهم في الأزمنة الغابرة.. وكذلك الأنهار وتعدد أسمائها..

وجاء في تغريبة بني هلال: «إنه لا يخفى على أهل المعارف بأن بلاد نجد كانت من أحصب بلاد العرب، كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان، حتى كان يذكرها شعراء الزمان بالأشعار الحسان، وتفضلها على غيرها نظرا لحسن هوائها، وكانت منازل بني هلال من سالف الأجيال — وما زالت — على رونقها الأول، حتى تغير قطرها، واضمحل عنها الحشيش والنبات، وعمت الجاعة جميع الجهات، ولم يعد فيها شيء من المأكولات حتى صارت أهاليها تأكل الحيوانات...» (تطور مناخ السعودية وأثره على هجرات البشرية) مجلة الخفجي، عدد سبتمبر ١٩٨٠، ص ٢٥)، أصبحت حقيقة علمية الآن بفضل البعثات الجيولوجية الباحثة عن بصمات تلك الأزمنة الغابرة في قلب رمالها.

ومن أكبر هذه البعثات بعثة جيولوجية بقيادة بيتروايررو من المتحف البريطاني، والتي توجهت إلى دولة الإمارات في أوائل عام ١٩٨٩، واكتشفت بقايا للحياة الحيوانية تعود إلى أواخر عصر الميوسين، أي إلى حوالي ٧ ملايين سنة.

والحيوانات التي عثر بيتروايررو وزملاؤه على بقاياها حيوانات من رتبة البهيميات (وهي خرطوميات ثديية تعتبر من الأقارب البعيدة للفيلة المعاصرة) وأفراس النهر، وأكلات اللحوم الصغيرة، والجيايد، ووحيد القرن، والسلاحف والتماسيح والأسماك والطيور، وقرود تشبه الماكاك.. وواضح أن كل هذه الحيوانات من أصول حبشية.. ففي حقبة الميوسين كان البحر الأحمر مفتوحا على البحر المتوسط، ولكنه كان مغلقا من جنوبه بجسر بري قائم بين الحبشة واليمن، وفي الشرق كانت شبكة نهري دجلة والفرات تمتد إلى الجنوب أكثر مما هي عليه اليوم، وتشير أنواع الحيوانات التي عثر عليها إلى أنها قد ازدهرت في دلتا هذه الشبكة (مجلة آفاق علمية، عدد (المرجع السابق)، ص: ٦٣)، ص ١٤ نقلا عن مجلة «نيتشر Nature» عدد ٢٧/٤/١٩٨٩ م).

التصوير الفضائي:

ومع التقدم الهائل في علوم الفضاء والاستشعار عن بعد، دخلت هي الأخرى حلبة السباق في البحث والكشف

عن الكنوز المدفونة في باطن الأرض، مثل الآثار والمياه الجوفية والمعادن وغيرها. وتستطيع تكنولوجيا التصوير الفضائي والاستشعار عن بعد، إعطاء علماء الآثار فكرة عامة عن الأماكن التي عليهم أن ينقبوا فيها، وهذا ما حدث في أحد أشهر الأبحاث التي أجريت في صحراء مصر عام ١٩٨١. ففي مختبر المسح الأثري الأمريكي بولاية أريزونا الأمريكية، بينما كان الباحثون يحللون جداول معطيات جمعتهما أجهزة الرادار المركبة على متن مكوك الفضاء «كولومبيا»، أظهرت صور الرادار وجود منطقة تحت رمال صحراء جنوب مصر، وشمال غرب السودان، لا تغطيها الأمطار الآن إلا بمعدل مرة كل خمسين سنة، ولكنها تحتوي على مجاري أنهار قديمة كبيرة، بعضها أوسع من نهر النيل نفسه (يرى علماء التاريخ الطبيعي والجغرافيا التاريخية أن أنظمة نهريّة تجمعت وتكونت في عصر الأوليوسين الجيولوجي، وكونتا نهرًا كبيرًا أطلق عليه اسم «النهر الليبي القديم» أو الأورنيل (جد النيل) وكان يخترق الصحراء الغربية وينتهي بدلتا كبيرة في المنطقة الواقعة بين منخفض الفيوم جنوبا ووادي النطرون شمالا، وتحتوي الرواسب النهريّة في هذه المنطقة على بقايا كائنات من النوع الذي يعيش في الماء العذب، مثل التماسيح وأفراس النهر بالإضافة إلى الفيلة، وتعتبر منطقة الفيوم الموطن الأصلي للفيول في العالم. (بتصرف من «مورفولوجية الأراضي المصرية» للدكتور محمد صفى الدين، ص: ٥٠، ٥١)!

بعد ذلك بعدة أشهر أثبتت البعثات التي توجهت إلى المنطقة أن أشعة الرادار كانت قد اخترقت الرمال الجافة وانعكست على الأحجار الكلسية الموجودة في قيعان الأنهار (الجافة) على عمق مترين من سطح الأرض، ووجد المنقبون عند شطآن الأنهار التي حددها الرادار أصدافا لأنواع من الحلزون البري الذي لا يمكنه العيش إلا في الأماكن الرطبة المبتلة وفي مناخ استوائي.

والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن المنقبين عثروا على ألوف من الأدوات التي صنعها الإنسان في العصر الحجري، كالفؤوس اليدوية وما شابه ذلك، والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٠٠ ألف سنة خلت، وهذا ما جعل العلماء يعتقدون بأن تلك الصحراء كانت رطبة ومأهولة في بعض تلك العصور (مجلة آفاق علمية، عدد (١٧)، ص ٣٢).

وقد أجريت حديثا دراسة مشاهمة لشبه الجزيرة العربية، حيث أظهرت الصور الجوية وجود مجرى لنهر قديم عملاق يخترق شبه الجزيرة العربية من الغرب ويتجه إلى الشرق، ناحية الكويت، ويختفي مجرى هذا النهر تحت كميات هائلة من الكثبان الرملية، وأوضح الصور أيضاً أن مساحة شاسعة من شمال غرب الكويت عبارة عن دلتا لهذا النهر العملاق، ويشير هذا الكشف — كما ذكر الدكتور فاروق الباز (جريدة الشرق الأوسط، عدد ١٩٩٣/٣/٢٧ في تحقيق أجري مع الدكتور فاروق الباز، عالم الجيولوجيا والفضاء المصري المقيم بأمريكا) — إلى وجود كميات هائلة من المياه الجوفية في مسار النهر القديم وإلى احتمال وجود آثار للإنسان القديم الذي لا بد أنه عاش على جانبي النهر في العصور السحيقة عندما كان النهر يجري بالمياه قبل ٥٠٠٠ عام (لمزيد من المعلومات عن آثار الإنسان القديم التي عثر عليها حديثا في شبه الجزيرة العربية، انظر: نورمان ويلن ودافيد بيز «أوائل البشر في شبه الجزيرة العربية» مجلة الثقافة العالمية، عدد (٥٩)).

المكتشفات الأثرية في شبه الجزيرة العربية:

وتدل التنقيبات الأثرية الحديثة على صحة هذه المعلومات، خاصة بعد اكتشاف عدد من المواقع الأثرية هي بقايا حضارات ومدن متقدمة، في مناطق هي الآن صحراء جافة!

ففي عام ١٨٣٤م اكتشفت قلعة على مقربة من عدن، تعرف بـ «حصن الغراب» وبعد إزاحة أكوام الرمال

عن أطلال هذه القلعة عثر على قطعة من الرخام وعليها نقش يقول: (١)

«لقد قضينا دهورا بين أفنية هذه القلعة في عيشة راضية لا يشوبها ضيق أو عسر، وتحيط بنا مياه البحر في حالة طغيان المدّ، وأتھارنا تقيض مندفعة غزيرة، وبين النخيل الباسقات كان حارسها يغرس الرطب الجني على ضفاف الجداول المتعرجة الدافقة بالماء أو الجافة، وكنا نصيد صيد البر بالحبال والغاب، كما كنا نخرج الأسماك من أعماق البحار، وكنا نختال في مشيتنا، رافلين في ملابسنا الحريرية الموشاة عند أطرافها، وثياب سندسية خالصة، وأردية ملونة بخطوط خضراء، وكان الملوك الذين يحكموننا متهين عن الدناءة، أشداء على أهل الخديعة والغدر، وقد اختاروا لنا شريعة محكمة مستمدة من ديانة هود، وكنا نؤمن بالمعجزات، والبعث، وإحياء الموتى.. (سيد مظفر الدين نادي «التاريخ الجغرافي للقرآن» ترجمة دكتور عبدالشافي غنيم عبدالقادر، ص: ١٨٢ — ١٨٣، نقلا عن كتاب المستشرق (فورستر Fo) صلى الله عليه وسلمste صلى الله عليه وسلم) الجغرافيا التاريخية لبلاد العرب».

وهذا الحصن من بقايا حضارة عاد الثانية(عاد من أمم العرب العظيمة البائدة، أسست أقدم مدينة عرفها العالم، وكانت القصور الشاخنة والصروح العظيمة أكبر مظهر لتقدمهم، قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ (الفجر: ٦ — ٨) وقد أرسل الله إليهم هودا — عليه السلام — فكذبوه وكفروا به.. قال تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول رب العلمين أبليكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ (الأعراف: ٦٥ — ٦٨) فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية كما قال تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ (الحاقة: ٦ — ٧) وهؤلاء هم عاد الأولى، ونجى الله هودا والذين آمنوا معه، قال تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا بنجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ (هود: ٥٨) وهؤلاء هم عاد الثانية، وهو يصور مدى رغد العيش والسعة والتقدم الذي كانوا يعيشون فيه.. وواضح أن هذه الصورة لا تكون في صحراء جافة.

وفي صفحات التاريخ تُذكر العديد من المدن العربية التي ذاع صيتها، وتناقل الرواة الحكايات عن تقدمها الحضاري، ونسجت حولها الأساطير والروايات، ومن أشهر هذه المدن المدينة الأسطورية «أوبار Uba» صلى الله عليه وسلم، وبعد الكشف عن أطلال وكنوز هذه المدينة إحدى المغامرات العلمية المثيرة الرائعة(أنظر مجلة الثقافة العالمية، عدد (٦٥) ومجلة العلم والتكنولوجيا، عدد (٢٩)).

فوجود هذه المدينة وموقعها ظلا لغزا حير علماء الآثار لسنوات خلت، وجعلهم أسرى الشكوك والتكهنات والافتراضات، فتوقعوا مواجهة صعوبات همة في البحث عن ضالّتهم المنشودة، ولكن اليوم، وبفضل تسخير الله أحدث الوسائل التكنولوجية التي تميز بها عصرنا، خصوصا التطور التقني الهائل في مجال تكنولوجيا الفضاء، تمكن العلماء من تحديد موقع هذه المدينة ونفض الغبار عنها، مما جعل عملية الاكتشاف في حد ذاتها، سابقة لا مثيل لها في علم الآثار الحديث.

لغز المدينة المفقودة:

ومدينة «أوبار» من أقدم وأشهر مدن شبه الجزيرة العربية (ربما تكون مدينة أوبار — كما يعتقد العديد من العلماء — هي مدينة «إرم» المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ ويصفها القرآن بأنها: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وتذكر كتب التفسير، ومعاجم البلدان عن هذه المدينة

الكثير من الروايات، تحوي مبالغات كثيرة عن عظم تلك المدينة وفخامتها (أنظر على سبيل المثال: الروض المعطار في خبر الأقطار: ص ٢٢ — ٢٤) قال ابن كثير في تفسيره؛ ٥٠٨/٤: «وهذا كله من خرافات الإسرائيليين» وبقى — بعد استبعاد مبالغات الرواة وتحويل القصص — أنها مدينة عظيمة، شيدها شداد بن عاد في صحرائها الجنوبية، وبذل النفيس والغالي في بنائها لتكون جنة في الأرض، إذا جاز التعبير..

وكان لورانس العرب أول من حلم بتحديد مكان المدينة المفقودة، وأطلق اسم «أطلنتيس الصحراء» عليها، ولكن توفي قبل أن يحقق حلمه، ثم تبعه آخرون من الرحالة الذين انطلقوا في بعثات غير مثمرة عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٣، ومنهم الرحلى البريطاني «برترام توماس B.Thomas» الذي استند — أثناء رحلته الاستكشافية — إلى كلام البدو الذين زودوه بعدد من الإرشادات لإيجاد الطريق إلى «أوبار» ولكنه لم ينجح أبداً في العثور عليها. وفي بداية الثمانينيات بدأ البحث الجدي عندما وقعت بين يدي صانع الأفلام الوثائقية الأمريكي «نيقولا كلاب N.Clapp» — وهو من جملة من شغفوا باكتشاف المدينة — المذكرات التي كتبها توماس عام ١٩٣٢، وتضمنت سيرته ومجموعة تقارير علمية عن الآثار في شبه الجزيرة العربية، وفيها يشير — مدعوماً بالأدلة — إلى وجود طريق قديمة إلى «أوبار»، وبالإضافة إلى ذلك جمع «كلاب» معلومات أكثر حول الموضوع من مراجع ووثائق تضمنت أسماء ٦٠٠ مؤرخ وعالم جغرافي ورحالة أكدوا وجود «أوبار».

نتيجة لهذا الجهد النظري قرر «كلاب» تأليف فريق بحث مهمته الانطلاق في بعثة لمدة ثلاثة أشهر لحل لغز المدينة المفقودة، وضم الفريق، المحامي «جورج هدجز G.Hedges» المسؤول عن جمع المال والتبرعات لتمويل البعثة وتنظيم أمورها، وخبيرين في شؤون الجزيرة العربية، هما عالم الآثار المعروف «جوريس زارنر J.Za» صلى الله عليه وسلم «ins» الذي تولى تحليل المعلومات المتوفرة، والسير «رانولف فينيس» صلى الله عليه وسلم «Fiennes». الذي كان ضمن الوحدات العسكرية البريطانية التي ساعدت الجيش العماني عام ١٩٦٨، وكان على دراية كبيرة بالمنطقة.

حصلت البعثة على دعم شخصي من السلطان قابوس — الذي بدا مغتبطاً جداً للأمر — ومن وزارة التراث العمانية، التي تبنت الفكرة وقدمت للبعثة كل عون ورعاية، وكذلك من بنك عمان الدولي ومن شركة نفط عمان. والجدير بالذكر أن أقدم الإشارات الجغرافية إلى «أوبار» وردت في خريطة جغرافية قديمة وضعها الجغرافي السكندري «كلوديوس بطليموس C.Ptolamy» وأشار إلى وجودها في منطقة تقع على مشارف الربع الخالي حالياً، وهي صحراء غير مطروقة واجتيازها محفوف بالمخاطر، وكانت أول زيارة للبعثة لهذه المنطقة المحظورة عام ١٩٩٠، ولكنها ما لبثت أن غادرتها خوفاً من الوقوع في المهالك.

أما عملية البحث الجدي فبدأت في نوفمبر عام ١٩٩١، وفي أوائل ١٩٩٢ — وبعد أن صرح «كلاب» بأنه بدأ يشعر بالفشل — جاء قرار البعثة بالتنقيب في منطقة «سشعر» في «ظفار»، وكانت النتائج مشجعة، خاصة بعد أن تم دعم عملية الحفر باستخدام رادارات خاصة بالتربة الرملية تتغلغل في باطن الأرض.

وكان «كلاب» — قبل ذلك، وبالتحديد عام ١٩٨٤ — قد طلب من عالين في وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» مسح منطقة شبه الجزيرة العربية بواسطة رادار التصوير الفضائي المركب على مكوك الفضاء «تشالينجر» وبعد مقارنة صور المكوك مع صور أرسلها القمران الصناعيان «سبوت Spot» الفرنسي، و«لاندسات Landsat»، أصبح بين يدي البعثة خريطة فريدة لمنطقة الربع الخالي، توضح طرق القوافل القديمة وخزانات المياه الجوفية ومحاري الأنهار القديمة والوديان، وكلها مناطق كان من الصعب جداً رؤيتها بالعين المجردة، إلا أنها ظهرت

واضحة جليلة بفضل تكنولوجيا التصوير الفضائي.

وقد أظهرت هذه الخريطة وجود طريق للقوافل مدفونة تحت الكثبان الرملية التي يصل ارتفاعها إلى ١٨٣م، وبلاستعانة بهذه المعلومات قررت البعثة الحفر قرب نقطة تقاطع طريق القوافل مع ممكن مائي قدم كشفت عنه الصور الفضائية، وهنا كانت الاكتشافات المدهشة.. قلعة محصنة مثمرة الأضلاع، ذات أبراج وجدان شاهقة يصل ارتفاعها إلى ١٠ أمتار، وتضم عددا من غرف التخزين وأماكن السكن.. وظهرت المدينة الأسطورية «أوبار».

وهناك أيضا الكشف عن آثار مدينة «قرية» التي تقع على ضفاف وادي «الفاو» وتبعد ٢٨٠ كم إلى الشمال من مدينة «نجران» وتشرف على الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي، وتقع على الطريق التجاري الذي يربط بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها، حيث كانت القوافل تبدأ من سبأ ومعين مارة بقرية (محمد الأسعد) حضارات قبل الإسلام» مجلة آفاق علمية، عدد (٣٤).

وقد بدأ التنقيب عنها عام ١٩٧٢ حيث تولت المهمة جمعية التاريخ والآثار في جامعة الرياض، وأصدرت الجامعة أحد عشر مجلدا عن نتائج التنقيبات، تناولت المعادن والأواني الفخارية والحجرية والمباخر والزجاج والحلي والفخار والعمارة والمسكوكات والكتابات والنقوش، والتي ترجع «قرية» إلى القرن الثاني الميلادي.

وهكذا تؤكد كل الشواهد والبراهين العلمية والتاريخية أن الحقائق الواردة في حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — صحيحة ثابتة، قالها — صلى الله عليه وسلم — قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، ولم يكن ثمة أجهزة تنقيب أو تصوير فضائي.. وإنما كان هناك الوحي.. {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}.

— النبوءة العلمية

عودة الأنهار إلى شبه الجزيرة العربية

يتضمن هذا الحديث النبوي الشريف — إلى جانب الحقيقة العلمية المبهرة والمعجزة، والتي أثبتتها البحث العلمي الحديث، والمتعلقة بمناخ شبه الجزيرة العربية منذ آلاف السنين — يتضمن أيضا نبوءة علمية عجيبة وغريبة أخرى، ألا وهي: عودة الصورة الاصلية القديمة لشبه الجزيرة العربية.. أمطار غزيرة، وأنهار جارية، ومراع ومساحات خضراء وارفة!!

«لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»

ويعتقد البعض أن ما قاله النبي — صلى الله عليه وسلم — قد تحقق الآن في شبه الجزيرة العربية، نتيجة لاكتشاف مياه جوفية بكميات كبيرة تدفق منها العديد من الآبار والعيون الجارية (يميز الباحثون بين نوعين من المياه الجوفية: مياه سطحية بالطبقات العليا التي لا يزيد عمقها عن بضعة عشرات من الأمتار تحت الأرض، وهي حصيلة الأمطار والسيول الراهنة، وأخرى بالطبقات العميقة على بعد مئات الأمتار أسفل السطح، وهي مدخرة من عصور جيولوجية ماضية.. وفي شبه الجزيرة العربية توجد خزانات جوفية عميقة (أي أنها مدخرة من العصور المطيرة في الماضي البعيد) تحت مساحات شاسعة من أرض الصحراء تقدر بنصف المساحة الكلية، ففي بعض مناطق تبوك أنزلت آبار ناجحة على عمق ٨٠٠م، وفي القصيم تحفر الآبار ألف متر، وفي الجوف وسكاكا بشمال السعودية فجرت مياه الخزان الجوفي العميق منذ سنوات حيث أنزلت الآبار نحو ٨٥٠م تحت السطح، فاندفعت المياه ساخنة بضعة أمتار إلى أعلى.. (بتصرف من: جغرافية الصحارى العربية، ص ١٨٥ . ١٩٢ . ١٩٣)، مما مكن — وباستخدام التكنولوجيا الحديثة في الزراعة — من استصلاح مساحات شاسعة من الأراضي الصحراوية وزراعتها.

وهذا مخالف لظاهر كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — فقد قال: «مروجاً وأنهاراً» ولم يقل «مروجاً

وعيوننا» ومعروف أن الأهمار تتكون أساسا من سقوط الأمطار الغزيرة، وهذا ما لم يحدث حتى الآن. والظن الغالب، والتفسير الأقرب إلى المفهوم من كلامه — صلى الله عليه وسلم — أن هذا سيحدث كنتيجة لتغير شامل في مناخ الكرة الأرضية، ينتج عنه تحرك نطق المطر بحيث تدخل صحراء شبه الجزيرة العربية فيها، مما يؤدي إلى جريان الأهمار في أوديتها الجافة، وهذا يعني — كما سبق أن ذكرنا — دخول الأرض في عصر جليدي جديد!!

مناخ الأرض المتغير

والواقع أن صورة المناخ الثابت للأرض صورة غير حقيقية، فخلال آلاف السنين — وهي تعد لحظات بالنسبة للتاريخ الجيولوجي — تحدث تغيرات هائلة في مناخ الأرض، حيث يسودها مناخ بارد وتحتل المسطحات الجليدية الهائلة مساحات شاسعة منها، ثم تبدأ درجات الحرارة في الارتفاع مرة أخرى، وينحسر الجليد، وتحدث فترة دفء.. وهكذا.

وهناك العديد من الأدلة على حدوث مثل هذه الذبذبات المناخية لخصها الأستاذ «أوستن ميلر» فيما يلي: (الجغرافيا التاريخية الطبيعية، ص ١٣٤ — ١٣٥)

١ — المعلومات الخاصة بالأمطار وغيرها من الظواهر المناخية الأخرى، والتي سجلها الكتاب القدماء، مثل سجل الظواهر الجوية الذي دونه بالإسكندرية بطليموس في القرن الثاني الميلادي.

٢ — المعلومات الخاصة بالفيضانات وفترات الجفاف.

٣ — المعلومات الخاصة بمواعيد بذر الحبوب وضمها، ومثال ذلك أنه توجد في بعض جهات أوروبا سجلات مدون فيها مواعيد حنّي الكروم منذ سنة ١٤٠٠ م.

٤ — البيانات الخاصة بمواعيد تجمد المواني، فمثلا توجد بالدانمارك سجلات مدون فيها مواعيد تجمد المياه عند سواحلها في فصل الشتاء منذ سنة ١٣٥٠ م.

٥ — اختلاف المسافات بين الحلقات السنوية لنمو الأشجار المعمرة (الحلقات التي تظهر في مقطع الشجرة) وقد عُمر بعض هذه الأشجار أكثر من ٣٠٠٠ سنة.

٦ — وجود الغابات المتحجرة في جهات لا تكفي أمطارها في الوقت الحالي لنمو الغابات، وكذلك وجود كتل الأخشاب المتفحمة في جهات شديدة الجفاف في الوقت الحاضر.

٧ — وجود آثار مراكز عمران قديمة في جهات لا تساعد ظروفها المناخية الحالية على العمران، مثل أنقاض مدينة «تدمر» بالصحراء السورية، والتي يقدر عدد سكانها في القديم — بناء على هذه الأنقاض — بأكثر من مائة ألف نسمة.

٨ — وجود آثار تدل على الزراعة في مناطق لا يسمح مناخها الحالي بالزراعة.

٩ — امتداد بعض الطرق حول بحيرات جافة حاليا، وكذلك قيام كباري ومعاير على مجاري مائية ليس بها ماء في الوقت الحاضر.

وبغیرها من الأدلة الكثيرة التي تثبت هذه الحقيقة.

ومن الثابت أيضا «أن ظهور الإنسان الأول كان معاصرا لتغيرات مهمة في المناخ، نتج عنها ظهور الفترات الجليدية في عصر البليستوسين الجيولوجي» (المرجع السابق، ص : ١٣٦) وهي آخر الفترات الجليدية، ونعيش الآن فترة الدفء التي أعقبتها.

النظرية الفلكية للعصور الجليدية

وقد شغلت ظاهرة دخول الأرض في عصور جليدية أذهان العلماء، وأخذوا يبحثون عن الأسباب التي تسببها، ووضعوا لذلك العديد من النظريات والافتراضات، ومن أشهرها — الآن — نظرية الفلكي اليوغسلافي «ميلانكوفيتش» التي طرحها في بدايات القرن الميلادي الماضي.. فماذا قال «ميلانكوفيتش»؟ (ترجع النظرية الفلكية للعصور الجليدية إلى القرن التاسع عشر، وإلى أعمال الفلكي الاسكتلندي جيمس كروول الذي ولد عام ١٨٢١ ونشر آراءه في ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولم تلق قبولا آنذاك، ثم أعاد ميلانكوفيتش طرحها — بعد أن أدخل عليها تعديلات — عام ١٩٤١)

لقد أرجع سبب الانقلابات المناخية على سطح الأرض إلى التغيرات التي تطرأ على ثلاثة مقادير متعلقة بهندسة مدار الأرض حول الشمس.

فالأرض تدور حول الشمس في مدار شبه دائري، ولكنه لا يثبت هكذا، بل يتغير فيمتد قليلا ليصبح إهليجياً، ثم يعود إلى وضعه شبه الدائري في دورة مدتها ١٠٠ ألف سنة، وعندما يكون المدار دائرياً فإن الأرض تتلقى كمية مماثلة من حرارة الشمس في كل يوم من أيام السنة، أما عندما يكون المدار إهليجياً فإن كوكبنا يكون في بعض أيام السنة أقرب إلى الشمس ويتلقى مزيداً من الحرارة منه في أيام السنة الأخرى، ولكن مجموع كمية الحرارة التي يتلقاها الكوكب بأسره خلال سنة كاملة يبقى ثابتاً دوماً.. هذا هو التغير الأول في نظرية «ميلانكوفيتش».

أما التغير الثاني فهو في محور دوران الأرض.. فالأرض تدور حول محورها، وهذا المحور يكون مائلاً على مستوى دورانها حول الشمس، بمعنى أنه إذا رسم محور متعامد على مستوى دوران الأرض حول الشمس (وهو ما يعرف بدائرة الكسوف) فإن محور دورانها يميل على هذا المحور العمودي بزاوية تتغير من ٢١,٨° إلى ٢٤,٥° في دورة مدتها ٤١ ألف سنة.. وهذه الزاوية الآن ٢٣,٤ وهي آخذة في التناقص.

والتغير الثالث في هندسة مدار الأرض يتعلق أيضاً بمحور دورانها، فهذا المحور الوهمي يرسم في السماء دائرة — وهو ما يعرف بالترنح «P» صلى الله عليه وسلم «eccession» ويكمل المحور دورته هذه في دورة مدتها ٢٣ ألف سنة.

هذه هي التغيرات التي تطرأ على هندسة مدار الأرض حول الشمس والتي يسببها تفلطح الأرض وعدم كمال استدارتها، وجاذبية القمر والكواكب لها، مما يجعلها تترنح في دورانها حول الشمس كما تترنح «النحلة» التي يلعب بها الصبية، وهذا بدوره يؤثر على كمية الإشعاع الشمسي الواصلة إلى الأرض خلال أيام السنة.

كان من المستحيل أيام «ميلانكوفيتش» أن تختبر النظرية الفلكية للعصور الجليدية، فلم يكن ثمة من يعرف التواريخ المضبوطة لنمو وانحسار الجليد خلال الآلاف الماضية من السنين، وهكذا ظلت هذه النظرية غير مثبتة وليس لها من المتحمسين إلا القليل، إلى أن تطورت التقنيات الحديثة لتعقب حرارة الأرض على مر آلاف الأعوام عبر العصور، ثم هذا في السبعينيات بدراسات على بقايا الأصناف الجيرية والقواقع والحيوانات الأولية المترسبة في أعماق البحار (جون جريين «ظاهرة الصوبة» ترجمة د. أحمد مستجير، ص: ٦٢ — ٦٣).

وتستخرج الرواسب من قاع البحر في صورة أعمدة طويلة يستخرجها مثقاب من سفن الاستكشاف الجيولوجي، لكن عمر الرواسب عند أي عمق لا يمكن استقراؤه مباشرة من العمود، وإنما يقدر بمقارنة المغناطيسية (يتغير المجال المغناطيسي للأرض تغيراً واسعاً مع الزمن الجيولوجي، فيضعف ويشتد، وأحياناً ينعكس تماماً، وهذه التغيرات — خاصة الانعكاس — تمثل بصمة مميزة للعصر الجيولوجي، فمن الممكن أن نقارن أي قطعة من الرواسب

لها مغناطيسية معينة بنظيرتها من صخور اليابسة، ليحدد عمرها بدقة بالغة. (ظاهرة الصوبة، ص: ٦٣ بتصرف) المحبوسة بها بمغناطيسية صخور من البر حسب عمرها بالفعل بطرق أخرى (٢٤)، وهذا يحل نصف المشكلة، وهي تحديد عمر الرواسب، ويبقى النصف الآخر، وهو تحديد درجة الحرارة في هذا الزمن الذي ترسبت فيه.

هناك نوعان شائعان من ذرات الأكسجين (نظيران) هما أكسوجين (١٦) وأكسوجين (١٨) وكلاهما موجود في الهواء الذي نتنفسه، وكذا في ماء البحر، ولما كان الأكسوجين (١٨) أثقل من الأكسوجين (١٦) فإن البعض من جزيئات ماء البحر سيكون أثقل من البعض الآخر، وجزيئات الماء الأثقل تتجمد أسرع من جزيئات الماء الأخف، وهذا يعني أن نسبة أكبر من الجزيئات الأثقل ستحبس في الثلج عند حلول العصر الجليدي، ولما كانت الكائنات البحرية تأخذ الأكسوجين من بيئتها لبناء أصدافها، فإن الأصداف التي تتكون في العصر الجليدي ستحتوي على قدر أعلى نسبيا من نظير الأكسوجين الأخف، الذي لم يحبس داخل الطبقات الجليدية الضخمة.. وبقياس نسبة نظيري الأكسوجين في بقايا القواقع والأصداف الموجودة في الطبقات المختلفة من الرواسب أمكن الاستدلال على درجة الحرارة عند ترسيبها (المرجع السابق، ص: ٦٤).

لقد وجد أن طول العصر الجليدي نحو مائة ألف عام، تأتي بعده فترة دفء تسمى مرحلة «بين جليدية» تستمر لمدة عشرة إلى عشرين ألف عام، ولقد تكرر هذا النمط عشر مرات خلال المليون سنة الأخيرة، ونحن نعيش الآن قرب نهاية مرحلة دفء طبيعي، فترة بين جليدية بدأت منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام (المرجع السابق، ص: ٥٨).. أي أن الأرض تقترب من بداية عصر جليدي جديد.. وتحقق نبوءة النبي — صلى الله عليه وسلم.

ويوقع «هال ماكور» عودة البحيرات إلى صحراء شبه الجزيرة العربية، فقد لاحظ في تموز (يوليو) ١٩٧٧ سقوط أمطار شبه موسمية على امتداد ثلاثة أسابيع في شمال الربع الخالي، ولم ينتج عن ذلك تشكل بحيرات جديدة، ولكن — على حد قوله — «إذا تكرر هذا الأمر بقوة كافية لتكوين بحيرات فقد يكون ذلك مؤشرا على عودة الأمطار الموسمية إلى الربع الخالي ومعها انقلاب في المناخ (آفاق علمية، عدد (٢٤)، ص: ١٥)».

(٢) المقال الثاني، نشر في العدد الرابع من مجلة الإعجاز العلمي، مجلة فصلية تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن السنة، رابطة العالم الإسلامي.
من رعاية الطفولة في الإسلام

تخنيك المولود وما فيه من إعجاز علمي

للدكتور. محمد علي البار

لقد اهتم الإسلام اهتماما عظيما برعاية الطفولة والأمومة في مراحلها كلها اهتماما لا يدانيه ما نتحدث عنه منظمات الأمم المتحدة وحقوق الإنسان ومنظمات الصحة العالمية ...

ولا تبدأ رعاية الطفولة منذ لحظة الولادة بل ولا حتى منذ لحظة تلقيح البويضة بالحيوان المنوي حينما تتكون النطفة الأمشاج (اللقحة أو الزيجوت) بل تمتد هذه الرعاية منذ لحظة التفكير الذي حث عليه الإسلام أيما حث ورغب فيه أيما ترغيب ... قال تعالى {ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} [سورة الروم آية ٢١].. وقال تعالى {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها. وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام} [سورة النساء آية ١].. وقال تعالى {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين

وحفدة} [سورة النمل آية ٧٢] والآيات في هذا الباب كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، وقد أمر صلي الله عليه وسلم باختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة قال عليه الصلاة والسلام "إذا أتاكم من ترضون دينه وحلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" (أخرجه أبو داود والترمذي) وقال عليه السلام " إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه لنكاحها فليفعل" (أخرجه أبو داود) وأخرج مسلم والنسائي قوله عليه الصلاة والسلام لمن أراد الزواج هل نظرت إليها؟ قال الرجل لا . فقال النبي صلي الله عليه وسلم : "فاذه فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا" وأخرج الحاكم والدارقطني عن عائشة رضي الله عنها قوله صلي الله عليه وسلم " تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء" والأحاديث في هذا الباب كثيرة كلها تأمر بحسن الاختيار وبنكاح الأكفاء والابتعاد عن المرأة الحسناء في المنبت السوء (خضراء الدمن) .. وألا يكون الزواج لجرد الحسن والجمال ، ولا للمال فقط ولا للحسب والنسب ، إنما يكون للدين . قال صلي الله عليه وسلم ٠ و لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسي حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لأموالهن فأموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين) (أخرجه ابن ماجه والترمذي) .. وقد اهتم الإسلام اهتماما عظيما بسلامة النسل وبكيان الأسرة القوي ، ولم يهتم بالجانب الأخلاقي فحسب ، إنما ضم إليه الجوانب الوراثية الجسدية و النفسية . ومن اهتم الإسلام بالمولود رعايته لأمه أثناء الحمل . قال تعالى {ووصينا لإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا} [سورة الأحقاف آية ١٥] .. وقال تعالى {ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا علي وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير} [سورة لقمان آية ١٥] وقد أعفى الإسلام الحامل من هم الرزق (والإعاشة) حتى ولو كانت مطلقة فإن علي والده أن يتحمل ذلك ، عكس ما يحدث الآن فالحامل تعمل وتتعرض لمشكلات العمل ، بل ليس لها إجازة وضع إلا في وقت محدد ، بل الغريب حقا أن الولايات المتحدة لا تعترف حتى اليوم بإجازة الوضع ، إنما تعطي المرأة إجازة مرضية في حدود أسبوعين ، وعليها بعد ذلك ان تعود الي مسرعة إلي العمل . فليس علي المرأة في جميع أطوار حياتها — أن تهتم بموضوع الإعاشة والسكن .. ففي طفولتها او ما قبل الزواج فنفتتها علي والدها أو ولي أمرها . وما بعد الزواج نفقتها علي زوجها حتى ولو كانت غنية ، إلا أن تطوع ، وتبقي نفقتها عن زوجها — حتى لو طلقها في أثناء العدة .. فإذا كانت حاملا لا تنتهي العدة إلا بالولادة فإن أرضعت طفلها فلها أجر الرضاع من مال زوجها ، قال تعالى {وإن كن أولات حمل فانفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن و اقروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى} [سورة الطلاق آية ٩] وقال تعالى {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلي المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} [سورة البقرة آية ٢٣٣] . فإذا ولد الطفل فإن علي والده أن يؤذن في أذنه اليميني وأن يقيم في اليسري ليكون أول ما يصل إلي سمعه ذكر الله والأذان والإقامة ، وهو أمر مستحب قد وردت به الأحاديث الصحيحة الحسنة كما يجب عليه أن يعق عنه (إن استطاع وإلا فلا يكلم الله نفسا إلا وسعها) ويستحب أيضا تحنيكه .. كما ينبغي الحذر كل الحذر من تسخط ما وهب الله له من البنات ولا يكن مثل الجهلة والكفرة اللذين لمزهم الله سبحانه وتعالى بقوله {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه علي هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون} [سورة النحل آية ٥٨ و٥٩] .

بعض الأحاديث الواردة في التحنيك :

- ١ . أخرج البخاري في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنهما

حملت بعبد الله بن الزبير بمكة . قالت خرجت وأنا متم فأتيت المدينة فزلت قباء فولدت بقاء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حنكه بالتمر ثم دعا له فبرك عليه، فكان أول مولود يولد في الإسلام ففرحوا به فرحا شديدا، أنهم قد قيل لهم أن اليهود سحرتكم فلا يولد لكم. (كتاب العقيقة الحديث رقم/٤٧٥٠ وكتاب المناقب حديث رقم ٣٦١٩ وأخرجه أيضا مسلم في صحيحه كتاب الآداب رقم ٣٩٩٩ وأخرجه أحمد في مسنده في مسند الأنصار حديث رقم ٢٥٧٠١).

٢. وأخرج مسلم في صحيحه "كتاب الآداب حديث رقم ٣٩٩٦" عن أنس بن مالك قال: "كان ابن لابي طلحة يشتكي فخرج أبو طلحة فقبض الصبي فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم هو الآن أسكن مما كان، فقربت اليه العشاء فتعشي ثم أصاب منها فلما فرغ قالت واروا الصبي فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال "أعرستم الليلة؟" قال: نعم قال: "اللهم بارك لهما". فولدت غلاما قال لي أبو طلحة احمله حتى تأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتي به الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثت معه بتمرات فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أمعه شيء" قالوا نعم تمرات، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي ثم حنكه وسماه عبد الله. وفي كتاب الفضائل الصحابة "فضائل أم سليم" بنفس القصة بأطول مما هو ههنا. "صحيح مسلم — ج ١٦ — ١٢ — ١٢" أخرجه أحمد في مسنده "في مسند الكثيرين حديث رقم ١٢٣٣٢" وفيه: فتناول أي النبي صلى الله عليه وسلم تمرات فألقاهن في فيه فلاكهن ثم حنكه ففغر الصبي فاه فأوجره، فجعل الصبي يتلمظ فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أبت الأنصار إلا حب التمر" وسماه عبد الله. ٣. وفي الصحيحين "البخاري في العقيقة باب تسمية المولود، ومسلم في الآداب باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته" عن أبي موسى الأشعري قال: ولد لي غلام فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة. وزاد البخاري "و دعا له بالبركة ودفعه إلي".

مستوي السكر في دم المولودين :

ان مستو السكر الجلوكوز في دم الأطفال اليافعين وبالغين يتراوح ما بين ٧٠ و ١٢٠ ملليجرام لكل ١٠٠ مليلتر من الدم في حالة الصيام ويرتفع بعد الأكل "أو شرب مواد سكرية إلى أقل من ١٨٠ ملليجرام خلال ساعة ثم يعود ليهبط لمستواه خلال ساعتين . أما بالنسبة للمولودين حديثا فإن مستوى السكر في الدم يكون منخفضا . وكلما كان وزن المولود أقل كلما كان مستوي السكر منخفضا . وبالتالي فإن المواليد الخداج "وزنهم أقل من ٢,٥ كجم " يكون منخفضا جدا بحيث يكون في كثير من الأحيان ٢٠ ملليجرام لكل ١٠٠ مللتر من الدم .. وأما المواليد أكثر من ٢,٥ كجم فإن مستوى السكر في الدم لديهم يكون عادة فوق ٣٠ ملليجرام . ويعتبر هذا المستوى "٣٠ ملليجرام أو اقل عند من يكون وزنهم أكثر من ٢,٥ كجم أو ٢٠ جرام أو أقل عند المواليد الخداج" ويعتبر هذا المستوى هبوطا شديدا في مستوى سكر الدم . ويؤدي ذلك إلى الأعراض الآتية:

١. أن يرفض المولود الرضاعة .
٢. ارتخاء العضلات .
٣. توقف متكرر في عملية التنفس وحصول ازرقاق في الجسم.
٤. احتلاجات ونوبات من التشنج.

وقد يؤدي ذلك إلى مضاعفات خطيرة مزمنة وهي :

١. تأخر في النمو.
٢. تخلف عقلي.
٣. شلل دماغي.
٤. إصابة السمع أو البصر أو كليهما .
٥. نوبات صرع متكررة(تشنجات)

وإذا لم يتم معالجة الحالة في حينها قد تنتهي بالوفاة ،رغم أن علاجها سهل وهو إعطاء السكر الجلو كوز مذابا في الماء إما بالفم إذا كان المولود قادرا علي البلع أو بواسطة الوريد إذا لم يكن قادرا علي البلع مع معالجة الإلتانات و الأمراض الأخرى المصاحبة، مع توفير الأكسجين بالحضانات وخاصة لدي المواليد الخداج.

المناقشة:

ان قيام الرسول صلى الله عليه وسلم بتحنيك الأطفال المواليد بالتمر بعد أن يأخذ التمرة في فيه ثم يحنكه بما ذاب من هذه التمرة بريقه الشريف فيه حكمة بالغة . فالتمر يحتوي علي السكر "الجلوكوز" بكميات وافرة وخاصة بعد اذابته بالريق الذي يحتوي على أنزيمات خاصة تحول السكر الثنائي سكروز إلي سكر أحادي كما أن الريق ييسر إذابة هذه السكريات وبالتالي يمكن للطفل المولود أن يستفيد منها.

وبما أن معظم أو كل المواليد يحتاجون للسكر "الجلوكوز" بعد ولادتهم مباشرة فإن إعطاء الطفل التمر المذاب بقي الطفل من مضاعفات نقص السكر الخطيرة والتي ألقينا إليها فيما سبق مخاطر نقص السكر "الجلوكوز" في دم المولود.

إن استحباب تحنك الطفل بالتمر هو علاج وقائي ذو أهمية بالغة وهو إعجاز طبي لم تكن البشرية تعرفه وتعرف مخاطر نقص السكر

وإن المولود وخاصة إذا كان خداجا ، يحتاج دون ريب بعد ولادته مباشرة إلي أن يعطي محلولاً سكريا . وقد دأبت مستشفيات الولادة والأطفال علي إعطاء المولودين محلول الجلوكوز ليرضعه المولود بعد ولادته مباشرة. ثم بعد ذلك تبدأ أمه بإرضاعه. إن هذه الأحاديث الشريفة المتعلقة بتحنك الأطفال تفتح آفاق مهمة جدا في وقاية الأطفال وخاصة الخداج "المبسترين" من أمراض خطيرة جدا بسبب إصابتهم بنقص سكر الجلوكوز في دمائهم . كما وان إعطاء المولود مادة سكرية مهضومة جاهزة ألها توضح إعجازا طبيا لم يكن معروفا في زمنه صلى الله عليه وسلم ولا في الأزمنة التي تلتها حتى أتضحت الحكمة من ذلك الإجراء في القرن العشرين.

(٣) المقال الثالث ، نشر في العدد الثالث والرابع على حلقتين ، في مجلة الإعجاز العلمي.

من إعجاز القرآن الكريم والسنة المطهرة في

الطب الوقائي والكائنات الدقيقة

د/عبد الجواد الصاوي

جاء الإسلام للدين والدنيا معا، فكما شرع نظاماً للحكم ، وأخرى للعلاقات الاجتماعية، ومثلها للنظم الاقتصادية، كذلك وضع منهجا فريدا متكاملا لحفظ الصحة البشرية، سبق به كل المعارف الإنسانية، يتكون من إرشادات لحفظ : صحة الجسم ، وصحة العقل، وصحة السلوك الخلقي، والصحة النفسية.

وستتناول بإذن الله في سلسلة من المقالات جانباً من هذا المنهج الفريد، يتعلق بوقاية الصحة من الأمراض والأخطار، تحت مسمى إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة.

الطب الوقائي

عرف العلماء الطب الوقائي الحديث بأنه: العلم المتعلق بالوقاية من الأمراض الجرثومية، والعضوية، والنفسية للفرد والمجتمع. وعليه تكون مسببات الأمراض الرئيسة ثلاثة :

مسببات من الكائنات الدقيقة.

مسببات من مركبات عضوية.

مسببات من إصابات نفسية.

تعتبر الكائنات الدقيقة أمة من الكائنات الحية، التي لا ترى أعيننا معظمها، وتوجد في كل مكان؛ في الهواء والماء والتربة، وعلى أجسامنا وفي أفواهنا وأمعاننا، بل وأحياناً في الطعام الذي نأكله، وبعضها مفيد وبعضها ضار، وتتكون من عائلات وأجناس وأنواع متباينة وعديدة، وتتفاوت في الصغر فأصغرها الفيروسات، التي يتراوح حجمها من ١٠-٣٠ نانو متر (١/بليون من المتر)، يليها الميكروبات التي يصل حجمها إلى ١٠٠٠ نانو متر، ثم الفطريات ثم الطفيليات الأولية، فالديدان المتطفلة بأنواعها المختلفة، وأخيراً الحشرات المفصليّة المتطفلة.

ويعتبر الجسم البشري أرضاً خصبة لأنواع كثيرة وقطاعات واسعة، من الكائنات الدقيقة ؛ وخصوصاً في الأنف والحلق، وفي الجزء السفلي من القناة الهضمية، وعلى الجلد ، وهي كائنات متخصصة لكل عضو ونسيج. كما يتضح في الأشكال (١،٢،٣،٤،٥) وتعيش هذه الكائنات المتطفلة فيما بينها وبين الإنسان في علاقة ديناميكية وحيوية متوازنة. والجسم البشري في حالة اشتباك دائم مع هذه الكائنات الداخلية والخارجية التي تهاجم وتلحق به الضرر، يقاومها بكل الأسلحة التي يمتلكها، وقد سخر الله سبحانه وتعالى له أسلحة عديدة، يغالب بها هذه الكائنات الغازية له، غير أنها قد تفلت من كل الوسائل الدفاعية أو تتغلب عليها، لتوقع الضرر بجسم الإنسان ، لذلك كانت الوقاية منها، هي خير وسيلة للنجاة من شرورها والحد من أخطارها. والوقاية من هذه الكائنات لا يكون إلا بأمور ثلاثة :

١- قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان.

٢- الحفاظ على أجهزة المناعة والدفاع لدى الإنسان وتقويتها.

٣- التخلص من مخازن هذه الكائنات أو تنظيفها بقدر الإمكان.

وتنوزع هذه المخازن بين ثلاث مصادر:

١- الإنسان.

٢- الحيوان.

٣- البيئة: التربة والماء.

ويعتبر الإنسان مخزناً لعدد كبير من الكائنات الدقيقة، في أماكن مهمة في جسمه تعمل كمخازن دائمة لها، وأبرزها:

الجلد والضم والأنف والحلق والقناة الهضمية، والتي تحتوي عدد كبيراً من الميكروبات والفيروسات، والتي يمكن أن تبقى في الجسم لعدة أشهر أو سنوات.

وستتناول في هذه المقالة بعض التشريعات والتوجيهات الإسلامية التي تتعلق بالنظافة الشخصية والتي تخلص

الإنسان من الكائنات الضارة وتشكل أحد الأسس في علم الطب الوقائي. مفهومه المتكامل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. كما سنبين وجه الإعجاز العلمي فيها.

ولقد حرصت نصوص الشريعة أن تستأصل هذه الكائنات من مخازنها وتحول بينها وبين إلحاق الضرر بالإنسان فأرست قاعدة النظافة الشخصية، لوقاية الفرد من الأمراض المعدية والعضوية والتي تتحقق بما فرضه الله سبحانه وبما سنّه نبيه صلى الله عليه وسلم من الوضوء والغسل ونظافة الثياب وأماكن الصلاة وسنن الفطرة.

ولقد سمت النصوص النظافة بالطهارة، وجعلتها جزءاً مهماً من الدين، بل هي شرطه، كما قال عليه الصلاة والسلام: [الطهور شرط الإيمان] (رواه مسلم، النووي ٨٠/٢ حديث رقم ٢٢٣).

وأثنى الله على عباده المطهرين فقال تعالى: {والله يحب المطهرين} (التوبة ١٠٨). وجعل وسيلة الطهارة الأولى هي الماء لأنه وسط غير ملائم لنمو الكائنات الدقيقة فيه متى كان نقياً.

الوضوء والغسل

لقد فرض الله سبحانه وبين رسوله صلى الله عليه وسلم أن على الإنسان المسلم أن يغسل الأجزاء المكشوفة من جلده، (الوجه واليدين والذراعين ومسح الرأس والأذنين وغسل القدمين وغسل الفم والأنف) خمس مرات في اليوم الليلة، وفي كل مرة يغسل العضو ثلاث مرات. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا ..} الآية

كما شرع الإسلام غسل جميع البدن على وجه الإلزام، وندب إليه في أكثر من سبعة عشر غسلاً، بل حدد الفترة الزمنية التي لا يمكن تجاوزها بغير غسل، فقال عليه الصلاة والسلام: [حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده] (رواه الشيخان واللفظ لمسلم، فتح الباري ٤٤٤/٢ حديث رقم ٨٩٧-٨٩٨. ومسلم، النووي ١١٢/٣ حديث رقم ٨٤٩) وهذا يحقق غاية الكمال في نظافة الجسم كله، ويزيل عدد هائلاً من الكائنات الدقيقة التي تعيش على جلد الإنسان.

الغسل والقضاء على جراثيم الجلد

تذكر المراجع الطبية أن الجلد يعتبر مخزناً لنسبة عالية من البكتيريا والفطريات، ويكثر معظمها على البشرة وجذور الشعر، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مائة ألف جرثومة على كل سنتيمتر مربع من الجلد الطبيعي، وفي المناطق المكشوفة منه، يتراوح العدد بين مليون إلى خمسة ملايين جرثومة/سم، كما ترتفع هذه النسبة في الأماكن الرطبة مثل: المنطقة الإربية وتحت الإبط، إلى عشرة ملايين جرثومة/سم. وهذه الجراثيم في تكاثر مستمر، كما يتضح في الشكل (٤،٧).

والغسل والوضوء خير مزيل لهذه الكائنات. إذ ينظف الغسل جميع جلد الإنسان كما جاء في غسل النبي صلى الله عليه وسلم أنه يروى بشرته ثم يفيض الماء على سائر جسده، وينظف الوضوء الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثاً بالجراثيم، لذا كان تكرار غسلها أمراً مهماً، وقد أثبتت عدة دراسات قام بها علماء متخصصون: أن الاستحمام يزيل عن جسم الإنسان ٩٠% من هذه الكائنات، أي بأكثر من مائتي مليون جرثومة في المرة الواحدة، كما يتضح في شكل (٨،٩،١٠) وهذه الجراثيم تلتصق بالجلد بواسطة أهداب قوية عديدة، لذا أمر الشارع بتدليك الجلد في الوضوء والغسل، كما يتضح في شكل (٦).

الوضوء وجراثيم الجلد المكشوف

لو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء، لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة منه، فالفم والأنف هما المدخلان الرئيسيان لأعضاء الجسم الداخلية، فنظافتهما من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب.

واليدان والذراعان، والوجه وشعر الرأس، والقدمان وأسفل الساقين، كلها أجزاء مكشوفة من البدن، وتتراكم عليها الجراثيم بكميات كبيرة، كما ذكرنا، فغسلها بالماء ينقيها منها ويزيلها عنها، كما أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بتخليل أصابع اليدين والقدمين، وغسل عقدها، وذلك تعقياً لما يمكن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيم والفطريات الضارة وغير ذلك، كما وصى النبي صلى الله عليه وسلم بنظافة اليدين خاصة، وحض على غسلهما عدة مرات في اليوم، بالإضافة إلى الوضوء كغسلهما قبل الطعام وبعده، وبعد الاستيقاظ من النوم، وبعد الخلاء وبعد كل تلوث، وذلك لما لليدين من خطورة في نقل الأمراض وانتشار الأوبئة، عن طريق مس الطعام أو الشراب أو المصافحة. كما يتضح في شكل (١٢، ١١).

المضمضة والوقاية من الأمراض

إن مضمضة الفم بالماء ثلاث مرات، تخلصه من عدد هائل من الكائنات الدقيقة، حيث تستقر فيه أعداد وأنواع كثيرة منها، تزيد على ثلاثمائة مستعمرة، ويتراوح عدد الجراثيم في اللعاب حوالي مائة مليون جرثومة/مم، كما توجد بعض الفطريات والطفيليات الأولية بأعداد هائلة، وهي تتغذى على بقايا الطعام بين الأسنان، وينتج من نموها وتكاثرها أحماض وإفرازات كثيرة، تؤثر على الفم ورائحته وعلى لون الأسنان وأدائها، والمضمضة بالماء ثلاث مرات، في خمسة أوقات من اليوم، تخلص الفم من عدد هائل من هذه الكائنات وسمومها. كما يتضح في شكل (١٤).

السواك والوقاية من الجراثيم الضارة

كما نشعر بعظمة أمر النبي صلى الله عليه وسلم لنا بالتسوك: [تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب، وما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض على وعلى أمتي] (رواه ابن ماجه، الطهارة باب ٧، حديث رقم ٢٨٩. المسند ١٢١/٦). وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يرقد من ليل أو نهار فيستيقظ إلا تسوك. نعم فالسواك مطهرة للفم حقاً، فقد ثبت تكون لويحة جرثومية (ial plaque r Bacte) تلتصق بالأسنان في غلالة رقيقة من اللعاب التي تسبح فيه، وهذه اللويحة أو الطبقة تتكون سريعاً حتى بعد تلميع الأسنان في أقل من ساعة، ويزداد سمكها ويحدث فيها ترسبات رخوة، كلما تركت من غير إزالة، وقد ثبت أن هذه اللويحة الجرثومية التي تتكون على الأسنان هي المسئولة عن أمراض اللثة ونخر الأسنان، لما تحويه من عدد هائل من الجراثيم؛ إذ يصل عددها داخل هذه اللويحة إلى حوالي مائة بليون جرثومة في الجرام الواحد، وهذا يوضح لنا حكمة حث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على دوام استعمال السواك، في قوله عليه الصلاة والسلام: [لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة] (رواه مسلم، النووي ١١٦/٢، حديث رقم ٢٥٢).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيحين إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك، لأن ركود اللعاب أثناء النوم، أحد العوامل التي تشجع تكاثر الجراثيم وازدياد ترسباتها في هذه اللويحة كما أن هذه اللويحة ليس لها علاقة بالأكل وفضلات الطعام، فهي دائمة التكوين، لذا نفهم الحكمة من ترغيب النبي صلى الله عليه وسلم وحضه على السواك وملازمته له حتى أثناء الصيام.

وللسواك فوائد طبية كثيرة للغم والأسنان ؛ حيث يحتوي على مادة مضادة لجراثيم شبيهة البنسلين؛ ذات التأثير الشديد في القضاء على الجراثيم، وثبت بالبحث أنه يقضي على خمسة أنواع على الأقل من الجراثيم الممرضة، والموجودة بالفم أهمها البكتيريا السبحية (Streptococci) والتي تسبب بعض أنواع الحمى الروماتيزمية، وقد أثبت ذلك الباحثان (براون وجاكوب) عام ١٩٧٩ م، كما وجد في السواك مادة السيليس التي تحرف الفضلات، وتريح القلح وتساعد على تلميع الأسنان، كما يتوافر فيه بكثرة حمض العفص (Tannic acid)؛ وهو قاتل الجراثيم ومطهر قوي ويشفي جروح اللثة والتهاباتها. وقد وجد به أيضا مادة من مركب أميني (Trimethyl Amine)؛ تخفض من الأس الأيدروجيني للغم (وهو أحد العوامل المهمة لنمو الجراثيم)؛ وبالسواك تقل فرصة نمو هذه الجراثيم الموجودة بأعداد هائلة. وقد أجريت دراسة سريرية على مستعملي السواك، ثبت خلالها أن السواك يزيل اللويحة الجرثومية قبل عتوها وتأثيرها على الأنسجة، وتكرار السواك يوميا إلى قبل الصلاة يؤدي إلى درجة عالية من نظافة الفم، وأن التهابات اللثة التي كانت موجودة قبل البحث قد تحسنت، وأوصى الباحثون باستخدام السواك الدائم للوقاية من أمراض الفم والأسنان. (استعمال السواك لنظافة الفم وصحته، دراسة سريرية وكيميائية د.محمود رجائي وزملاؤه، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي، العدد الأول، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) كما ثبت أن له تأثيرا مهيّطا للسكر وتأثيراً مضاداً للسرطان.

نظافة الأنف من الجراثيم الممرضة

أما استنشاق واستنشاق الماء من الأنف؛ فله فوائد طبية كثيرة؛ أهمها: أنه يزيل المفرزات المتراكمة في جوف الأنف، والغبار اللاصق على غشائه المخاطي؛ كغبار المنزل والطلع وبعض بذور الفطريات والعفنات المنتشرة في الهواء، ويرطب جوف الأنف للمحافظة على حيوية الأغشية المخاطية داخله، كما أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به، ولقد أثبتت الدراسات والبحوث التي أجريت لغرض معرفة تأثير الوضوء على صحة الأنف-أن أنوف من لا يصلون تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة وبكميات كبيرة من الجراثيم العنقودية والمكورات الرئوية والمزدوجة (والدفترويد والبروتيتوس والكلبسيلا)، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أي مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم وجد قدر ضئيل من الجراثيم ما لبثت أن اختفت بعد تعليمهم الاستنشاق الصحيح. وقد وجد الباحثون أن نسبة التخلص من الجراثيم الموجودة بالأنف تزداد بعدد مرات الاستنشاق وأنه بعد المرة الثالثة يصبح الأنف خاليا تماما منها. (كيف يحافظ غسيل الأنف عند الوضوء على صحة الإنسان، مصطفى أحمد شحات وآخرون، نشرة الطب الإسلامي، العدد الرابع، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الرابع للطب الإسلامي، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م) كما يتضح في شكل (١٥).

لذا فقد وصى النبي *** بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثاً، ليتِم بهذا القضاء على مخزن من مخازن الكائنات الدقيقة، في هذا المكان المهم والحيوي، إذ هو المدخل للجهاز التنفسي.

إن سنن الفطرة التي أوصى بها النبي ***؛ لتمثل أساس نظافة الفرد. روى الإمام مسلم أن رسول الله *** قال: "عشر من الفطرة قص الشارب، وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم (عقد الأصابع) ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء (الاستنجاء) قال الراوي، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة" (رواه مسلم، النووي، ١٢٢/٢ باب ١٦ حديث رقم ٢٦١).

لقد كشفت لنا البحوث الطبية الأهمية الصحية البالغة لتطبيق هذه الخصال، وما يترتب على إهمالها من أضرار؛ فترك الأظفار مجلبة للمرض، حيث تتجمع تحتها ملايين الجراثيم، وقد فصل ذلك المختصون. وترك شعر العانة؛ هو المستول عن مرض تقمل العانة المنتشر بكثرة في أوروبا، والذي يؤدي إلى تقرحات والتهابات في هذه المنطقة. وأما الختان فقد أثبتت الأبحاث أن غير المختونين يصابون بمعدل أكبر بأمراض المسالك البولية؛ بسبب عدد من الجراثيم؛ وخصوصاً ارشيا كولاي (E.Coli)، والكبسيلا، كما ازدادت نسبة الصديد والبكتيريا لديهم في البول، كما ثبتت العلاقة بين سرطان عنق الرحم، وبين عدم اختتان الرجال.

وغسل البراجم (عقد الأصابع)؛ يزيل المستعمرات الجرثومية، التي تتخذ من ثنيات الجلد في هذه الأماكن كهوفا وأحاديث لها، ونتف الإبط ينظف هذا المكان المختبئ من الجلد؛ الذي تتجمع فيه الأوساخ، وتنمو فيه الجراثيم وخصوصاً الفطرية منها، كما أن بعض الجراثيم تهوى العيش على مادة الشعر نفسها في هذه الأماكن.

نظافة السبيلين واجتناب النجاسات

لقد أكد الإسلام على الطهارة، وجعلها شرطاً لصحة الصلاة التي تتكرر في اليوم خمس مرات، وأولى خطوات هذه الطهارة نظافة السبيلين اللذين منهما تخرج نفايات الجسد التي تحتوي على قدر هائل من الكائنات الدقيقة والسموم الضارة، وسمماها الشارع نجاسات، وأمر بغسل الدبر والقبل بالماء؛ ليزيل أي أثر منها يمكن أن يعلق بالجسد أو بالثياب، ولك أن تنظر في حديث النبي *** الذي أخبر فيه عن رجل يعذب في قبره؛ لأنه كان لا يتزهر من بوله ويترك عدة قطرات منه تعلق بثيابه، لتدرك شدة الاهتمام بنظافة هذا المكان، والتخلص من هذه النفايات الضارة وما فيها من أعداد كثيرة من الجراثيم، لذلك أمر الشارع باجتنايب الملابس والأماكن الملوثة بهذه النفايات أو النجاسات وعدم ملامستها حتى تطهر، واعتبر ذلك عبادة، وقد وجد أن إهمال نظافة الشرج والأعضاء التناسلية، قد يكون سبباً في إصابتها بمرض السرطان (أوجه الارتباط بين القيم الإسلامية والإصابة بالسرطان، أحمد القاضي، أشرف غور، نشرة الطب الإسلامي، العدد الثاني، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الثاني للطب الإسلامي، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

ولقد بدأ الغرب في مطلع النصف الثاني من هذا القرن، يطبق بعض هذه السنن؛ لما وجد فيها من فوائد صحية، وجعل يدعو إلى ذلك لما ثبت لديه من فائدة الاستنجاء الوقائية من الأمراض؛ حيث أثبتت إحدى الدراسات في كلية الطب جامعة مانشيستر: أن البكتيريا تنفذ من ثنائي طبقات من ورق التواليت إلى اليد، وتلوثها أثناء عملية التخلص من بقايا البراز، وقد ندرك حجم الخطر إذا علمنا أن الجرام الواحد من البراز في الشخص السليم؛ يحتوي على مائة ألف مليون جرثومة، وفي المريض بمرض التيفويد؛ قد يحتوي الجرام الواحد خمسة وأربعين مليوناً من بكتيريا التيفويد، أما في مريض الدزنتاريا أو الكوليرا؛ فمن المستحيل إحصاء أعداد الجراثيم لكثرتها الهائلة.

نظافة الثياب وحسن المظهر

إن الله سبحانه لم يأمر بتطهير البدن فقط، ولكنه أمر بتطهير الثياب فقال تعالى: {وثيابك فطهر} (المدثر ٤). وروى جابر أن رسول الله *** رأى رجلاً وسخة ثيابه فقال: أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه، ورأى رجلاً

شعث الرأس فقال: أما وجد هذا شيئاً يسكن به رأسه. (حلية الأولياء ١٥٦/٣، والمستدرک للحاکم ١٨٦/٤).
وقال عليه الصلاة والسلام:

أحسنوا لباسكم وأصلحوا رجالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس. (الحديث بهذا اللفظ في كثر العمال
٦٣٩/٦ رقم ١٧١٦٤ وأصله في المستدرک ١٨٣/٤، وسنن أبي داود ٣٤٩/٤)

وبهذه التدابير المحكمة في تحقيق نظافة مداخل ومخارج وجلد الإنسان، وملابسه، وأماكن جلوسه ونومه وصلاته،
يتوقى من أخطار الكائنات الدقيقة وسمومها الضارة؛ والتي يمكن أن تكون سبباً في مرضه أو هلاكه.
هذا فضلاً عن الفوائد النفسية للطهارة، التي تكون اثرًا وانعكاساً لها، لكونها عبادة لله الخالق العظيم، وتعود
بالنفع على جهاز المناعة فتقويه، وتردد لديه المقاومة لكثير من الأمراض والعلل التي تهدد حياة الإنسان.

وجه الإعجاز

إن علم الطب الوقائي لم يتبلور ولم يظهر للوجود، إلا بعد اكتشاف علم الكائنات الدقيقة بأنواعها وخواصها
المختلفة، وبعد التقدم العلمي والتقني الهائل في معرفة مسببات الأمراض، والذي لم يحدث إلا في هذا القرن أما قبل
ذلك فكان الناس فريقين: مسلمين وغير مسلمين، فالمسلمون لديهم نظام دقيق في الطب الوقائي، هو جزء من
دينهم يتبعونه الله به، وينفذونه في سهولة ويسر، وأما غيرهم، فهذه شهادة علمائهم عليهم!

وصفت عالمة الألمانية (زيفريد هونكه) في كتابها المسمى "شمس الشرق تشرق على الغرب" انطباع
(الطوطوسي) من زيارته لبلاد الإفرنج في تلك الآونة، وكيف كان وهو المسلم الذي يتوضأ، قبل كل فرض من
فروض الصلاة الخمسة، يستنكر حال القذارة التي كان يحياها الشعب الأوربي، وأبدى دهشته من أنهم لا يغتسلون
إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد، أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن يلبسوها كي لا تتمزق، ثم بينت الباحثة
الألمانية تأثر المجتمعات الأوربية بعد ذلك شيئاً فشيئاً بالعادات الإسلامية الحميدة، بعد أن اتضحت فوائدها، ومنها
إقامة الحمامات الخاصة والعامة "الإسلام والوقاية من الأمراض، د.عز الدين فراج، ط ٢، ١٤٠٤هـ - دار الرائد
العربي، بيروت). ولقد كان البريطانيون يعتبرون أن الغسل مضر بالصحة حتى أنه قد يؤدي إلى الموت والهلاك. وإنه
كان من العيب والعار أن يبني حمام داخل بيت أمريكي، حتى إن أول حمام مجهز بمغطس بني في البيت الأبيض كان
عام ١٨٥١م.

ولقد أثار في حينه ضجة لأنه اعتبر عملاً مشيناً في ذلك الوقت. وفي فرنسا كان قصر فرساي الشهير على
رحابته خالياً من حمام واحد (١٥).

لقد استعمرت بريطانيا جزر الساندويز وأرغمت سكانها المسلمين بالقمع والإغراء على أن يتحولوا إلى
النصرانية ولكن كانت النتيجة كما ذكرها الطبيب البريطاني (برنارد شو) في كتابه "حيرة الطبيب": أن انتشرت
بينهم الأمراض والأوبئة الفتاكة، وعلل ذلك بتركهم لتعاليم الدين الإسلامي؛ التي تقضي بالنظافة المطلقة في كل
صغيرة وكبيرة؛ إلى حد الأمر بقص الأظافر وتنظيف ما تحتها.

إن عالم الكائنات الدقيقة كان غيبياً في زمن النبوة وبعده، حتى القرن الماضي، لكن التوجيهات الإسلامية في
الطهارة والوضوء والغسل، والنظافة في المسكن والملبس وأماكن التجمعات، والتوجيهات في المأكل والمشرب،
والسلوك الخلقي العام والخاص، لتشير كلها بطريق أو بآخر إلى هذه العوالم الخفية وإلى مسببات الأمراض الأخرى،
التي تضعف البدن وتوهن الصحة، وتصيب الجسم بالعلل والأمراض التي قد تؤدي به إلى الهلاك.

وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، وقدم التشريع الإسلامي

أنجح السبل في القضاء عليها، وحماية الإنسان ووقايته من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله لرسوله، وتحقق قوله تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحكيم} (سبأ٦).

من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة

الوقاية من انتشار الأمراض والأوبئة

٢ - ٢

الدكتور عبد الجواد الصاوي الباحث بالهيئة

ملخص المقالة السابقة

تذكر المراجع الطبية أن انتشار واستمرار الأمراض السارية بين الناس تعتمد على عاملين أساسيين: المخازن الحاسوبية للكائنات الدقيقة التي تسبب الأمراض، والطرق المؤثرة في نقل هذه الكائنات للإنسان، بالإضافة إلى العوامل الخاصة بالكائنات نفسها، والعوامل التي تتعلق بالإنسان والتي أهمها حالة أجهزة الدفاع والمقاومة لديه. وللوقاية من هذه الكائنات التي يمكن أن تصيب الإنسان بأضرار بالغة لابد من مراعاة أمور ثلاثة:

١ - التخلص من مخازن هذه الكائنات أو تنظيفها بقدر الإمكان، والتي تتوزع بين الإنسان والحيوان والبيئة المتمثلة في التربة والماء.

٢ - قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان.

٣ - تقوية أجهزة المناعة والدفاع لدى الإنسان.

وقد ذكرت في القاتلة السابقة المنشورة في العدد الثالث من مجلة الإعجاز أن نصوص الشريعة حرصت على أن تستأصل هذه الكائنات من مخازنها لدى الإنسان، وتحول بينها وبين إلحاق الضرر به من خلال نظم ووسائل جعلتها عبادة يتقرب بها المسلم لربه ويفعلها محبا طائعا فأرست قاعدة النظافة الشخصية لأفراد المجتمع وسمتها الطهارة وجعلتها شطر الدين، ورسخت عمليا وسائل تحقيق هذه القاعدة بتشريع الوضوء والغسل والتزام تطبيق سنن الفطرة من السواك والمضمضة والاستنشاق والحتان وتقليم الأظافر وحلق العانة وغسل عقد الأصابع ونظافة السبيلين واجتناب النجاسات والحفاظ على نظافة الثياب والمظهر العام، فهذه التشريعات المترابطة بدقة والتي لا مثيل لها في أي تشريع أو دين أو معتقد تفضي إلى تنظيف بؤر ومخازن الكائنات الدقيقة للإنسان على الجلد وفي الأنف والفم والحلق وقناة الهضم.

وفي هذه المقالة نتناول قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان. وهو عامل رئيسي في الوقاية والحد من انتشار الأمراض والأوبئة.

لقد حمت نصوص الشريعة الإسلامية هذا الإنسان، ووقته من شرور وأخطار هذه الكائنات، فشرعت التدابير التالية للحيلولة بين الكائنات الممرضة والإنسان:

١ - نظافة البيئة المحيطة بالإنسان: لقد حرص الشارع على نظافة البيئة التي ستعكس حتماً على صحة الفرد والمجتمع والتي تتمثل في:

٢ - نظافة المساكن والأبنية: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب

النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا- أراه قال-: أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود" رواه الترمذي.
 ب-نظافة الطرقات وأماكن التجمع: حث النبي صلى الله عليه وسلم على إمطة الأذى عن الطرق وعدم التخلي في طريق الناس وظلمهم فقال:(عرضت عليّ أعمال أمتي حسننها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ووجد في مساوئ أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تدفن). رواه مسلم.
 وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً:(البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها) رواه البخاري.
 وقال صلى الله عليه وسلم:(اتقوا اللعانين، قالوا وما اللعانان يا رسول الله! قال الذي يتخلى في طريق الناس وفي ظلهم) رواه مسلم.

إن المناطق الباردة الرطبة وذات الظل تعتبر جواً ملائماً لنمو أغلب أنواع البكتيريا وبويضات الديدان وذلك لخلوها من تأثير الأشعة فوق البنفسجية القاتلة للجراثيم والبويضات، وبما أن البول والبراز يعتبران من مصادر هذه الجراثيم والديدان- حيث يحتوي الجرام الواحد من البراز على أكثر من مائة ألف مليون جرثومة- لذلك نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم التبول والتبرز في الظل.

٢- حفظ الطعام والهواء والماء من التلوث: إن جراثيم الأمراض والأوبئة تنتقل بشكل رئيسي من خلال الطعام والهواء والماء. فأمر الشارع الحكيم بأمور تصب كلها في حفظ هذا الثلاثي من التلوث بما:
 حفظ الطعام من التلوث:

يعتبر تناول الأطعمة الملوثة من أهم وسائل انتقال الأمراض كالتييفود والزحار وشلل الأطفال والتهاب الكبد الفيروسي حيث تنتقل جراثيم المرض من براز المريض أو حامل المرض إلى الإنسان وذلك عن طريق اليد أو الآنية ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على مستوى نظافة الفرد والبيئة وتطورها، فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يثالث الثقافة الصحية بين المسلمين قبل أن تكتشف الكائنات الدقيقة الممرضة ليقبهم أخطارها، فأمر المسلمين بتخصيص يد للأكل والمصافحة، ويد لمباشرة الأذى والخلاء، عن عائشة رضي الله عنها قالت:(كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى لظهورة وطعامه واليسرى لخلائه وما كان من أذى) رواه أبو داود.
 وقال صلى الله عليه وسلم (يا غلام ! سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) رواه البخاري ومسلم.
 حفظ الهواء من التلوث:

إن نفخ الرزاز وزفره يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المعدية كالأنفلونزا وشلل الأطفال والنكاف والحصبة الألمانية والرشح والتهاب الحلق والجذري والسل وغيرها من الأمراض وخاصة الفيروسية، لذلك وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه عدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب، كما أمرهم بتغطية الوجه أثناء العطاس والتثاؤب، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:(نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه) رواه أبو داود.

وفي الحديث إن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب ، فقال رجل: القذارة أراها في الإناء؟ قال : " احرقها " قال : فإني لا أروى من نفس واحد؟ قال : " فأبني القدح عن فيك " رواه الترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان إذا عطس غطى وجهه بيديه أو بثوبه وغض بها صوته) رواه الترمذي.. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا تئأب أحدكم فليضع يده على فيه) رواه البخاري.

حفظ الماء من التلوث:

يعتبر الماء الراكد جواً ملائماً لنمو الكثير من البكتريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيحلا وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولية والديدان كالزحام الأميبي والديدان المستديرة والبلهارسيا إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الطفيليات والديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها، لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبول في الماء الراكد- الذي لا يجري- لكي يبقى الماء في وقاية من التلوث.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) متفق عليه.

كما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتغطية الأنية وربط قرب الماء منعاً من تلوثها من الجراثيم الوافدة والتي تؤدي إلى ظهور الأوبئة وانتشارها فقال صلى الله عليه وسلم (غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء) رواه مسلم. ولوقاية الماء من التلوث أيضاً نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إدخال المستيقظ من نوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويطهرها فلعله مس أو حك بها سوءته أو عضواً مريضاً متقرحاً من جسمه وهو نائم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يده) رواه مسلم.

ولحفظ الماء من التلوث أيضاً نهى صلى الله عليه وسلم عن الشرب مباشرة من فم السقاء روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: (نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرب من في السقاء). إن المليتر من اللعاب يحوي بلايين الجراثيم فعندما تخرج هذه البلايين في لعاب الشارب أثناء شربه من إناء كبير، يمكث فترة طويلة كمصدر لشرب كثير من الناس، تنهياً الفرصة لتكاثر هذه البلايين وتسبب تلوثاً لهذه الماء ويصير مصدر خطر لمن يشرب من هذا الماء بعد ذلك.

٣- عزل المرضى والحجر الصحي: ومنعاً لانتشار الأمراض والأوبئة وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدتين أساسيتين تعتبران من أساسيات الطب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مسببات الأمراض والأوبئة وهما قاعدتي العزل والحجر الصحي، ففي الأولى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يوردن ممرض على مصح) رواه الشيخان، وفي الثانية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها) رواه الشيخان.

لقد كانت الأوبئة الفتاكة والأمراض المعدية في العالم الإسلامي أقل بكثير منها في أوروبا، في نفس المرحلة بل إن موجات الطاعون التي كانت تقضي على ربع سكان أوروبا كانت تنكسر حدها عند حدود العالم الإسلامي.

٤- تجنب لحوم الحيوانات الخطيرة: كما قد تنتقل الكائنات الدقيقة للإنسان عن طريق أكل لحوم الحيوانات الخازنة أو المصابة بها أو تناول منتجاتها لذلك حرام الإسلام أكل لحومها أو حتى التعامل معها وسمها خبائث في قوله تعالى: (ويجعل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث). (الأعراف ١٥٧).

فحرم أكل لحوم الحيوانات الميتة والدم وأكل لحم الخنزير، والسباع والطيور الجارحة، وأكل الحيوانات والطيور التي تتغذى على القذورات، واقتناء الكلاب والتعامل معها إلا لضرورة، وقد أثبت العلم أن هذه الحيوانات ولحومها تشكل بؤراً لتجمعات هائلة وخطيرة من الكائنات الدقيقة الفتاكة للإنسان، فماذا قال العلم الحديث فيها؟ إن لحوم الميتة والدماء المسفوحة هي أولى الخبائث التي حرمها الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: (حرمت عليكم

الميتة والدم ولحم الخنزير) (المادة ٣) ولقد تحقق ضررها علمياً وظهر خطرهما على حياة الإنسان، وذلك لأن احتباس دم الميتة في عروقها المتشعبة ضمن أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان، في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أن تنتشر بسرعة وسط اللحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر بسرعة وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة سامة التأثير، كما قي يموت الحيوان بسبب مرض معين فتنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلكه، كما في مرض السل والجمرة الخبيثة وجراثيم السلمونيلا وداء الكلب.

وقد حرم الله سبحانه أيضاً الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرض سواء كان ذلك الرض بالوقذ أو التردى من مكان عال أو بواسطة النطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع.

لأن تلك الأنواع إضافة إلى ما ينتج عن احتباس دمائها في أنسجتها من الأخطار السابقة فإن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرض يسبب انتشار للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن الموضوعة، وقد تكون به سحجات وجروح تسهل عبور جراثيم الهواء إلى داخل الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكة بين أنيائها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه مما تجعله يشكل خطراً داهماً على حياة الإنسان حينما يأكل لحمه.

أخطار أكل الدم: يعتبر الدم من أخطر الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصد فإنه ينعزل عن الأوعية الدموية التي تحفظ حيويته وتقويه من التلوث حيث تفقد كريات الدم البيضاء قدرتها على التهام الجراثيم وتموت خلايا جهاز المناعة، وتتهدم آلياته فتتكاثر الجراثيم بسرعة مزهلة، وتفرز سموماً (Toxins) فتاكة قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها.

أخطار الخنازير: أما الخنزير فإننا نوجز القول فيه حيث يقول ربنا سبحانه عنه: (فإنه رجس) والرجس الشيء القدر، والأفذار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة لما فيها من جراثيم وطفيليات ممرضة، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيراً من الكائنات الدقيقة الخطرة حيث يصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض البوائية لا تقل عن (٤٥٠) مرضاً ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (٧٥) مرضاً وبائياً للإنسان غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه، مثل تليف الكبد وعسر الهضم والحساسية الغذائية وتصلب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنية وعلاوة على إثارة السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي.

وينقل الخنزير بمفرده (٢٧) مرضاً إلى الإنسان وتشاركه بعض الحيوانات في بقية الأمراض على أنه يقوم بدور المخزن والمصدر الأساسي لهذه الأمراض في نقلها إلى الإنسان مباشرة بنقلها إلى الحيوانات القابلة للعدوى، ثم منها إلى الإنسان.

وينتقل أكثر من (١٦) مرضاً من الخنزير إلى الإنسان عن طريق تناول لحمه ومنتجاته...

وأهم هذه الأمراض هي الحويصلات الخنزيرية والحمى المتموجة والدودة الكبدية وداء وایل، وداء المكسليات اللحمية، والتهاب السحايا والمشيمة، وداء البرقانات الشريطية الجواله، والدودة الوحيدة المسلحة، وداء المصורות الليفانية المقوسة وداء الشعريات الحلزونية، والديدان السوطية، وداء السل، وداء المبيضات الفطرية، والالتهابات المعوية بجراثيم السلمونيالات والشايجالا وغير ذلك.

كما تنتقل عن طريق المخالطة والتربية والتعامل مع منتجات الخنزير ومخلفاته عدة أمراض لا تقل عن (٣٢) مرضاً، وأكثر الناس إصابة بها هم عمال الزرائب والمجازر والأطباء البيطريين.

وأهم هذه الأمراض علاوة على بعض الأمراض السابقة، الحمرة الخبيثة، الكلب الكاذب، الزحار الزقي، الحمى القلاعية، الحمرة الخثرية، التسمم الدموي، الأنفلونزا الخثرية، الحمى اليابانية الخثرية، الديدان الرئوية الخثرية، الجرب الغائر، السعار، داء النوم، الديدان القنفدية، وغير ذلك.

كما تنتقل عدة أمراض لا تقل عن (٢٨) مرضاً عن طريق تلوث الطعام والشراب بمخلفات الخثر (٣).
أخطار الكلاب: لقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن مخالطة الكلاب، وهي سباع مدجنة فيها من الطفيليات والجراثيم الدقيقة الشيء الكثير، والتي قد تسبب للإنسان أخطاراً محققة منها على سبيل المثال:
١- احتواء أمعاء الكلاب على أعداد كبيرة من الديدان الشريطية والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق ابتلاع بيضها الموجود في الطعام أو الماء الملوث ببراز الكلاب.

٢- داء الكلب المعروف وبعض أنواع داء الليشمانيات.

٣- مرض الكيسة المائية الكلبية والتي تكون الكلاب فيها هي السبب الغالب في إصابة الإنسان وحيواناته الأليفة والتي تتغذى على الجيف، ذلك لأن الكلب ينظف استه بلسانه فينتقل بيوض ديدان (الشريطية المكورة المشوكة) والتي تعيش في أمعائه إلى الإنسان عن طريق الطعام أو الماء الملوث بها وتسبب له (داء الكيسات المائية الخطير).

٤- كثير من الأمراض الطفيلية وأخطرها مرض (عداري) والتي تسببه السودة الشريطية (أكنوكاوكاس جرانيلولوساس) والتي توجد في كل مناطق العالم التي تعيش فيها الكلاب على مقربة من الحيوانات الداجنة آكلة العشب.

من هذا وغيره ندرك السر في نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اقتناء الكلاب إلا لضرورة.

روى الإمام مسلم وأبو داود والبيهقي عن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب). وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: (من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط) رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

كما ندرك السر في قوله صلى الله عليه وسلم: (طهور إناء أحدهم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاًهن بالتراب). رواه مسلم.

أخطار السباع والطيور الجارحة: حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل بعض الحيوانات لخطر يحمق بالإنسان أو ضرر يصيبه فحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير) رواه مسلم.

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذي ناب من السباع فأكله حرام).

كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الحيوانات الشديدة الضرر على صحة الإنسان كالفأرة من القوارض والغراب والحدأة من الطيور الجارحة، والكلب العقور من السباع المدجنة، والحية من الزواحف.

ينتشر طفيل (الشعرنية ناتيفا) بين الدببة والثعالب القطبية ويصاب الإنسان بها فور تناول لحوم هذه الحيوانات أو الحيوانات الحاضنة لهذا الطفيل بصورة ثانوية كالقط، كما ينتشر طفيل (تريخيتا نلسوني) في الضباع وبنات آوى والنمور والأسود وبعض الحيوانات المفترسة الأخرى، وتقع معظم الإصابات البشرية في أفريقيا بتناول لحم الخثر

الداخن والوحشي، وهما حاضنان ثانويان لهذا الطفيل لأنهما يتغذيان على الجيف، كما تنتشر الطفيليات التي تعرف بالشعريئات شبه الحلزونية، (تريخيليا سود وسيراليس) في الطيور الجوارحة (ذات المخلب) ويصاب الإنسان بالعدوى إذا تناول لحم الجوارح من الطيور كالنسر والعقبان والصقور وغيرها. أكل لحوم الجلالة وشرب ألبانها: كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل لحم الجلالة وشرب ألبانها وأكل الحمر الأهلية.

روى البيهقي والبراز عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجلالة وشرب ألبانها وأكلها وركوبها).

الجلالة هي كل دابة تأكل الأقدار وخصوصاً العذرة، التي تعتبر بيئة خصبة لنمو وتكاثر الديدان والطفيليات والجراثيم الضارة، إذ تحتوي على عدد هائل منها، يزيد على المائة بليون جرثومة في الجرام الواحد، لذلك فالعذرة تشكل مخزناً ومصدراً رئيسياً للخطر.

كما أثبتت الأبحاث العلمية أن الأقدار تحتوي على نسبة عالية ومتنوعة من السموم الخطرة على صحة الإنسان، فإذا تناولها حيوان أو طير انتشرت هذه الجراثيم في دمه ولحمه، وترسبت في أنسجته، وعندما يتناول الإنسان لحم هذا الحيوان أو لبنه، يصاب بالعلل والمراض. وجه الإعجاز:

أما أوجه الإعجاز في هذه النصوص التي وردت في هذا المقال - ومثلها كثير - فالمتدبر فيها يلاحظ الإشارة الجلية أحياناً والإشارة الخفية أحياناً أخرى إلى عالم الكائنات الدقيقة وإلى المواد الضارة كمسببات للأمراض وحدوث العلل وانتشار الأوبئة بينما كان الناس في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم: وقبل زمنه بل وبعده - حتى اكتشاف (باستير) الميكروبات - كانوا يعتقدون أن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة والشياطين والنجوم ولا علاقة لها بنظافة أو نظام أو سلوك وكانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات.

لقد شرع الإسلام للمسلم ووجهه إلى كل طرق الوقاية من الأمراض والأخطار باحتساب أسبابها وتقوية كل وسائل الدفاع لمقاومتها والقضاء عليها، إن عالم الكائنات الدقيقة كان غيباً في زمن النبوة وبعده حتى القرن الماضي لكن التوجيهات الإسلامية في الطهارة والوضوء والغسل والنظافة في الملبس والمسكن وأماكن التجمعات، والتوجيهات في المأكول والمشرب والسلوك الخلقي العام والخاص والوامر الكسبية لتقوية الجوانب الإيمانية في نفس الإنسان لتشير كلها بطريق أو بآخر إلى هذه العوالم الخفية التي تعيش داخل أجسادنا وفوقه وحوله وتهاجمنا وتهددنا وقد تفيدنا أو تهلكنا وهي موجودة بأعداد مذهلة وتتكاثر بأعداد فائقة وتصيب ملايين البشر بسمومها وأسلحتها بقدرة الله ومشيئته.

وفي الختام نقول للعلماء: انظروا بتجرد إلى هذه الحقيقة العلمية في قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعت بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه) رواه الشيخان.

ولضمان تنفيذ هذه الوصية النبوية العظيمة فقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم سوراً منيعاً حول مكان الوباء، فوعد الصابر واحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، وحذر الفار منه بالويل والثبور، قال صلى الله عليه وسلم: (الفار من الطاعون كالفار من الزحف ومن صبر فيه كان له أجر شهيد) رواه أحمد.

إذا قيل هذا الكلام لرجل صحيح منذ مائتي عام فقط وهو يرى صرعى المرض الوبائي يتساقطون حوله وهو بكامل قواه وقيل له: امكث في مكانك لا تخرج، لاعتبر هذا الكلام جنوناً أو عدواناً على حقه في الحياة، ويفر

هارباً بنفسه إلى مكان آخر خال من الوباء، وقد كان المسلمون هم الوحيدون بين البشر الذين لا يفرون من مكان الوباء منفذين أمر نبيهم ولا يدركون لذلك حكمة. حتى تقدمت العلوم واكتشفت العوالم الخفية من الكائنات الدقيقة وعرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسببها في الأمراض والأوبئة وتنبى أن الأصحاء الذين لا تبدو عليه أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه الحقيقة نشأ نظام الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن والذي يمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يمنع دخولها لأي قادم إليها فمن أطلع محمداً صلى الله عليه وسلم على هذه الحقيقة؟

أيمكن أن يتكلم بشر عن هذه الحقائق الدقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؟ اللهم إلا أن يكون كلامه وحياً يأتيه من عليم خبير بخلقه! حتى يرينا سبحانه آياته فنعرفها أنما من ربنا فنحمده على ما من علينا من تشريع وتكليف.

قال تعالى: (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) النمل ٩٣. وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، ومسببات الأمراض. وقد قدم الإسلام للبشرية أيسر وأنجح السبل في القضاء عليها وحماية الإنسان ووقايتها من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحى الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحقيقاً لقوله تعالى: (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) سبأ ٦. المراجع:

- ١- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، المكتبة الثقافية- بيروت.
- ٢- النسيمي (محمد ناظم) الطب النبوي والعلم الحديث، (١٤٠٤هـ)، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع.
- ٣- أحمد جواد، الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، ١٤٠٧هـ ط١، دار السلام للطباعة والنشر- القاهرة.
- ٤- عبد الحميد القضاة، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة- إسلام آباد- باكستان ١٤٠٧هـ.
- ٥- د. جورج. س. نيلسون، عبد الحميد الزنداني، دروس من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوقاية من الأمراض الطفيلية، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة- إسلام آباد- باكستان ١٤٠٧هـ.
- ٦- Volk benjamin, (١٩٩١ medical microbiology. ed kippincott philadelphia r٤).
- ٧- Patrick r. murray & others (١٩٩٤ medical microbiology internationale ed).

(٤) المقال الرابع ، نشر في مجلة الإعجاز العلمي، رابطة العالم الإسلامي، العدد الأول .

الإعجاز الطبي في أحاديث الرسول ﷺ عن عجب الذنب :

لقد أوضحت أحاديث المصطفى ﷺ قضايا كثيرة في جسم الإنسان وفيما سواه من الأمور التي لم يكشف عنها اللثام إلا في الآونة الأخيرة ، كما لا يزال بعضها يحتاج إلى المزيد من التقدم في العلوم الكونية حتى تتضح كل أبعاد حقائقها الرائعة البعيدة الغور الصعبة المنال مصداقاً لقول الله تعالى : { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } (فصلت : ٥٣) .

ومن جملة هذه الأحاديث تلك الأحاديث المتعلقة بعذب الذنب والتي أوضحت أن جسم الإنسان كله يركب منه عند تكوين الجنين ، كما أن ما يبقى منه في التراب هو الذي يعاد تركيبه يوم القيامة بأمر الله تعالى .

بعض الأحاديث الواردة في عجب الذنب :

١- أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما بين النفختين أربعون . قال : أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيت . قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . أي أن أبا هريرة أي أن يحدد الأربعين هل هي يوماً أو شهراً أو سنة (قال : (أي أبو هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ) : " ثم ينزل الله من السماء ماءً ، فينبثون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلي إلا عظماً واحداً ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة " (صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الزمر الآية ٨٦ ج٨/٥٥١ وسورة النبأ الآية ١٨ ج٨/٦٨٩ الطبعة السلفية . بمصر تصوير دار المعرفة بيروت).

٢- أخرج الإمام مسلم في صحيحه مثله عن أبي هريرة وجاء فيه : ط كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب " ، وفي لفظ آخر له : " وليس من الإنسان شيء إلا يبلي إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة " (صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر ، بيروت ، كتاب الفتن ج١٨/٩١ ، ٩٢) .

وفي لفظ آخر لمسلم أيضاً : " إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة . قالوا : أي عظم هو يا رسول الله ؟ قال : عجب الذنب " .

٣- وأخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة بلفظ : " كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب " (سنن أبي داود ج٤ الحديث رقم ٤٧٤٣ ، كتاب السنة ، ذكر البعث والصور ، ترقيم وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت).

٤- وأخرجه الإمام مالك في الموطأ : باللفظ السابق (تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للإمام السيوطي ، كتاب الجنائز ج١/٢٣٨ ، دار الندوة الجديدة ، بيروت).

٥- وأخرجه الإمام النسائي في كتاب الجنائز من السنن الكبرى .

٦- وأخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب الزهد (مسند الإمام أحمد ج٢/٢١٥ ، ٣٢٢ ، ج٣/٢٨).

٧- وأخرجه الإمام أحمد في مسنده في عدة مواضع .

٨- وأخرجه ابن حبان في صحيحه في مواضع متعددة بنفس الألفاظ السابقة (صحيح ابن حبان ج٥/٥٥ ، ٥٦ ، الأحاديث رقم ٣١٢٨-٣١٣٠) وكلها عن أبي هريرة إلا حديثاً واحداً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ : " بأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : مثل حبة خردل منه ينشأ " .

عجب الذنب في علم الأجنة (الشريط الأولى) :

أوضح علم الأجنة الحديث أن عجب الذنب هو الشريط الأولي Primitive Streak حيث إن هذا الشريط الأولي هو الذي يتكون إثر ظهوره الجنين بكافة طبقاته وخاصة الجهاز العصبي ، ثم يندثر هذا الشريط ولا يبقى منه إلا أثر فيما يسمى عظم العصعصي (عجب الذنب).

تكوين الشريط الأولي :

بعد أن تعلق الكرة الجرثومية (الأريمة) (جرثومة الشيء أصله ، وكذلك أرومته أي أصله ، وهذه الكرة الجرثومية تتكون من النطفة الأمشاج (الزيجوت) بعد أن يلحق الحيوان المنوي البيضة ، ثم يبدأ في الانقسامات المتتالية حتى تصبح مثل التوتة وهي مصممة من الداخل ثم تصبح مثل الكرة حيث يتكون بداخلها سائل ويصير لها

جوف ولهذا تدعى الكرة الجرثومية أو الأريمة (تصغيراً) ثم تعلق بجدار الرحم في اليوم السابع أو السادس منذ التلقيح Blastula في الرحم تنغرز فيه ثم تتمايز إلى كتلتين من الخلايا هما :

٩٩- الكتلة الخارجية : وهي تحتوي على الخلايا الأكلة Cytotrophoblasts التي تقضم جدار الرحم وتثبت الكرة الجرثومية فيه ، كما أنها تسمح بتغذية الكرة الجرثومية مما يتكون حولها من الدماء والإفرازات الموجودة في غدد الرحم .

٩٩- الكتلة الداخلية : التي منها يتكون الجنين بإذن الله تعالى ، وهذه بدورها تنقسم إلى ورقتين :

١- خارجية وتدعى الاكتودرم Ectoderm .

٢- داخلية تدعى الانتودرم Ectoderm .

وتظهر طبقة الانتودرم الداخلية في اليوم الثامن منذ التلقيح ، ويظهر شق صغير أعلى الطبقة الاكتودرمية الخارجية مكوناً بداية تجويف الأمنيون (السلي) ، ويكون سقف تجويف السلي من الخلايا الأكلة بينما قاعدته من خلايا الاكتودرم .

وفي اليوم التاسع يمتد من خلايا الطبقة بخلايا " الانتودرم " شريط من الخلايا ويتصل بخلايا الميزودم الخارجية Extra Embryonic Mesoderm مكوناً كيس المخ الأولي primary Yolk Sac .

وفي اليوم الثالث عشر تنمو من الخلايا الأكلة الخارجية Cytotrophoblasts نتوءات تعرف بحملات الغشاء المشيمي Chorionic Villi التي تثبت كيس الجنين بالرحم ، ثم تتفرع بعد ذلك مثل فروع الشجرة . كما تنمو الخلايا الانتودرم الداخلية مكونة كيس المخ الثاني والذي يصغر الكيس الأولي بكثير .

وفي نهاية الأسبوع الثاني يكون الجنين ممثلاً بقرصين متلاحقين :

١- القرص الخارجي (الاكتودرم) ويكون قاع تجويف الأمنيون .

٢- القرص الداخلي (الانتودرم) الذي يكون سقف تجويف كيس المخ .

ويلتصق القرصان في الجزء الأمامي أو ما سيعرف لاحقاً بجهة الرأس Cephalic Portion نتيجة ثخانة خلايا الانتودرم ، وتعرف هذه المنطقة باسم الصفيحة سالفة القلب Prochordal Plate .

وكذلك يلتصق القرصان في المنطقة المؤخرية (الذيلية) Caudal Portion مكونة صفيحة المزرق مستقبلاً Cloacal Plate .

وفي اليوم الرابع عشر يستطيل القرصان حتى يأخذ شكل الكمثري فيكون الجزء العريض هو الجزء الأمامي بينما يندق الجزء المؤخري ، وتنشط خلايا الاكتودرم في الجزء المؤخري مكونة الشريط الأولي Primitive Streak الذي يظهر لأول مرة في اليوم الخامس عشر منذ بدء التلقيح .

ويظهر انقسام سريع ونمو متكاثر في الشريط الأولي وتهاجر الخلايا منه ويسرة بين طبقة الاكتودرم الخارجية وطبقة الانتودرم الداخلية مكونة طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطة (الميزودم) Mesoderm .

ونتيجة لظهور الشريط الأولي يبدأ تكون الجهاز العصبي والنوتوكورد (سالفة العمود الفقري) كما تتكون الطبقة المتوسطة (الميزودم) ويشهد الجنين بداية تكوين الأعضاء أما عند غياب أو عدم تكون الشريط الأولي فإن هذه الأعضاء لا تتكون وبالتالي لا يتحول القرص الجنيني البدائي إلى مرحلة تكون الأعضاء بما فيها الجهاز العصبي .

ولأهمية هذا الشريط الأولي فقد جعلته لجنة وارنك البريطانية (المختصة بالتلقيح الإنساني والأجنة) العلامة

الفاصلة بين الوقت الذي يسمح فيه للأطباء والباحثين بإجراء التجارب على الأجنة المبكرة الناتجة عن فائض التلقيح الصناعي في الأنابيب (الأطلاق) ، فقد سمحت اللجنة بإجراء هذه التجارب قبل ظهور الشريط الأولى ومنعته منعاً باتاً بعد ظهوره على اعتبار أن ظهور هذا الشريط يعقبة البدايات الأولى للجهاز العصبي .

وعند ظهور الشريط الأولى ونتيجة نشاطه الجسم الغزير يظهر الآتي :

١- النوتوكورد (أو الحبل الظهرى أو سالفة العمود الفقري) ويمتد إلى جهة الرأس من العقدة الأولى Primitive node والتي تعرف أيضاً بعقدة هانسن .

٢- يتحول القرص الجنيني المستدير بظهور الشريط الأولى إلى شكل كمثري ، بحيث يمكن تمييز طرفيه ، ويدعي الطرف العريض الجهة الرأسية .. والطرف الدقيق الجهة الذيلية أو الذنبية .

٣- تظهر بداية الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية (الاكتودرم) في نهاية الأسبوع الثالث (٢٠-٢١ يوماً) مكونة الصفيحة العصبية Neural Plate التي تمتد من جهة الرأي إلى الشريط الأولى وتستطيل هذه الصفيحة وتنثني مكونة الانثناء أو الالتفاف العصبي Neural Folds ، وتكون الجهة المنخفضة ما يعرف باسم الميزاب العصبي Neural groove . وسرعان ما يتلف هذا الميزاب ليقتل مكوناً أنبوبة تدعي الأنبوبة العصبية Neural tube ، وتكون فتحة هذا الأنبوب في طرفية : الرأسية والذيلية .

وتدعي الفتحة الرأسية : الفتحة الأمامية العصبية Anterior Neural Pore أو الفتحة المنقارية Rostral Neuro Pore .. وتقتل الفتحة العصبية الأمامية في اليوم الخامس والعشرين بينما تقتل الفتحة الخلفية في اليوم السابع والعشرين . وبهذا يقتل الأنبوب العصبي ، ويشكل أغلبية الأنبوب الدماغ بينما يشكل الجزء الأخير (الذنب) النخاع الشوكي .

وفي الوقت الذي يقتل فيه الأنبوب العصبي تظهر الصفيحة السمعية Otic Placode والصفيحة العديدة Lens Placode .

ويتكون الدماغ في الثلثين العلويين للأنبوب العصبي بينما يتكون النخاع الشوكي في الثلث الأسفل وذلك من مستوي الكتلة (الرابعة - الخامسة) .

حيث إن الكتل البدنية Somites الأربع الأولى تكون جزءاً من قاع الجمجمة.

٤- تتكون طبقة الميزودرم التي تتكثف حول المحور الجنيني مكونة الكتل البدنية Somites والتي تشكل العمود الفقري والعضلات كما يخرج منها بدايات الأطراف العليا والسفلى .. وهي التي تكون الجهاز الهيكلي والعضلي .

وتنقسم طبقة الميزودرم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

الميزودرم بجانب المحور وهو الجزء الملاصق لمحور الجنين حيث الحبل الظهرى والميزاب العصبي ومنه تتكون الكتل البدنية Somites والتي تكون أبرز ما في الجنين فيما بين الأسبوع الثالث إلى الخامس ، ومنها يتكون الجهاز الهيكلي والعضلي كما يبرز من تلك الكتل البدنية الطرف العلوي والطرف السفلي .

القسم الثاني :

وهو الجزء المتوسط من هذه الطبقة ويعرف بالميزودرم المتوسط Intermediate Mesoderm ، ومنها يخلق الله سبحانه وتعالى الجهاز البولي والتناسلي .

القسم الثالث :

وهو الميزودرم الحشوي Lateal Mesoderm وينقسم هذا أيضاً إلى قسمين جداري وحشوي وبينهما تجويف يعرف بالتجويف الجنيني الداخلي Intra Embryonic Ceolom ويخلق الله سبحانه وتعالى منه أغشية البيرتون والبلورا والتمور (غشاء البطن الداخلي وغشاء الرئتين وغشاء القلب على التوالي) ، كما يخلق الله سبحانه وتعالى الأوعية الدموية والقلب وعضلات الجهاز الهضمي من القسم الحشوي.

وهكذا فإن تكون الشريط الأولى علامة هامة على بداية تمايز أنسجة الجنين وتكون الطبقات المختلفة ومنها الأعضاء ، والواقع أن ما يعرف بمرحلة تكون الأعضاء Organogenesis لا تبدأ إلا بعد تكون الشريط الأولى والميزاب العصبي والكتل البدنية وتستمر من بداية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع الثامن ، بحيث يكون الجنين في نهاية هذه الفترة قد استكمل وجود جميع الأجهزة الأساسية فيه ، وتكونت أعضاؤه ولم يبق إلا التفصيلات الدقيقة والنمو .

المراحل التي يبينها شكل (٤) :

١- القرص الجنيني في نهاية الأسبوع الثاني (في مرحلة العلقه) وقد ظهر الشريط البدائي (الأولى) والعددة الأولية .. وقد أصبح القرص كمثري الشكل . وتدعي الجهة المتسعة الجهة الرأسية ، والجهة الضيقة " الجهة الذنبية " وبظهور الشريط الأولى يبدأ ظهور الحبل الظهري (النوتوكورد) ثم يتبعه سريعاً ظهور الكتلة البدنية والأنبوب العصبي .

٢- بداية ظهور الكتل البدنية وتكون الصفيحة العصبية والتي تنشي مكونة الانثناء العصبي Neural Fold والميزاب العصبي (يبلغ عمر هذا الجنين ٢٠ يوماً) .

٣- تبدو سبعة أزواج من الكتل البدنية ويبدأ الميزاب العصبي يقفل جهة الكتل البدنية مكوناً الأنبوب العصبي ، الذي تجري في وسطه قناة تعرف باسم القناة العصبية Neural Canal .. ولكن هذه القناة لا تزال مفتوحة من الجهتين الرأسية والذنبية . تبدأ الصفيحة العصبية في الجهة الرأسية في النمو السريع وتكون أكبر حجماً من بقية الصفيحة (يبلغ عمر هذا الجنين ٢٢ يوماً) .

٤- تبدو " المضغة " وبها عشرة أزواج من الكتل البدنية (يبلغ عمر الجنين ٢٣ يوماً) . ويقفل الأنبوب العصبي ما عدا الفتحة الرأسية والفتحة الذنبية وينمو الأنبوب العصبي وخاصة في الجهة الرأسية مكوناً انبعاجاً وفي أعلى الجهة الرأسية يظهر نمو يسمى المنقار (العصبي) Rostrum .

٥- تبدو " المضغة " من أحد جانبيها وبها ١٩ زوجاً من الكتل البدنية (٢٥ يوماً) ويبدو واضحاً الانثناء الرأسي للأنبوب العصبي مكوناً انبعاجاً في هذه الجهة .

ويبدأ الأنبوب العصبي في قفل الفتحات الراسية ، وتقفل الفتحة الأمامية العصبية Anterior Neuro Pore في اليوم الخامس والعشرين من عمر الجنين بينما تقفل الفتحة الخلفية العصبية في اليوم السابع والعشرين .

وبذلك يقفل الأنبوب العصبي وتتكون القناة العصبية داخل الأنبوب وتتحول هذه القناة فيما بعد في الدماغ إلى بطينات الدماغ Ventricles Of the Brain أما في النخاع الشوكي فتسمى القناة الشوكية Spinal Canal ويجري فيها سائل مخ شوكي له أهمية خاصة في وقاية الدماغ والنخاع الشوكي .

مصير الشريط الأولى : Primitive Streak :

إن الشريط الأولى كما أسلفنا ذو أهمية بالغة لأن نشاطه الجرم يؤدي إلى تكون النوتوكورد (سالفة العمود

(الفقري) ، وإلى تكون الطبقة المتوسطة الداخلية (الميزودرم Mesoderm) التي يكاد ينتهي الشريط الأولى من مهمته تلك في الأسبوع الرابع حتى يبدأ في الاندثار ويبقى كامنا في المنطقة العجزية - العصصية - في الجنين ثم في المولود ، ويندثر ما عدا ذلك الأثر الضئيل الذي لا يري بالعين المجردة .

وقد أشار المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه لا يبقى من الإنسان إلا عجب الذنب فإذا أراد الله بعث الأحساد أنزل عليها مطرا من السماء كمنى الرجال فینبت الإنسان من بقايا ذلك الشريط الأولى الكامن في عجب الذنب (المنطقة العصصية) .

الخلاصة :

إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته صلى الله عليه وسلم . فقد أوضح علم الأجنة الحديث ، أن الإنسان يتكون ، وينشأ من عجب الذنب هذا (يدعونه الشريط الأولى Primitive Streak) ، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام ، والتخصص ، والتميز ، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية (الميزاب العصبي ، ثم الأنبوب العصبي ثم الجهاز العصبي بأكمله) ، ويندثر هذا الشريط الأولى إلا جزءاً يسيراً منه يبقى في المنطقة العصصية التي يتكون فيها عظم الذنب (عظم العصص) ، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ .

(٥) المقال الخامس : مقتطفات، وجدتها على صفحات الانترنت :

الوضوء وقاية من الأمراض الجلدية

قال صلى الله عليه وسلم : (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره) رواه مسلم : وقال : (إن أمي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل) متفق عليه .

أثبت العلم الحديث بعد الفحص الميكروسكوبي للمزرعة الميكروبية التي علمت للمنتظمين في الوضوء .. ولغير المنتظمين : أن الذين يتوضئون باستمرار .. قد ظهر الأنف عند غالبيتهم نظيفاً طاهراً خالياً من الميكروبات ولذلك جاءت المزارع الميكروبية التي أجريت لهم خالية تماماً من أي نوع من الميكروبات في حين أعطت أنوف من لا يتوضئون مزارع ميكروبية ذات أنواع متعددة وبكميات كبيرة من الميكروبات الكروية العنقودية الشديدة العدوى .. والكروية السبحية السريعة الانتشار .. والميكروبات العضوية التي تسبب العديد من الأمراض وقد ثبت أن التسمم الذاتي يحدث من جراء نمو الميكروبات الضارة في تجويف الأنف ومنهما إلى داخل المعدة والأمعاء وإحداث التهابات والأمراض المتعددة ولا سيما عندما تدخل الدورة الدموية .. لذلك شرع الاستنشاق بصورة متكررة ثلاث مرات في كل وضوء أما بالنسبة للمضمضة فقد ثبت أنها تحفظ الفهم والبلعوم من الالتهابات ومن تقيح اللثة وتقي الأسنان من النخر بإزالة الفضلات الطعامية التي قد تبقى فيها فقد ثبت علمياً أن تسعين في المئة من الذين يفقدون أسنانهم لو اهتموا بنظافة الفم لما فقدوا أسنانهم قبل الأوان وأن المادة الصديدية والعفونة مع اللعاب والطعام تمتصها المعدة وتسرى إلى الدم .. ومنه إلى جميع الأعضاء وتسبب أمراضاً كثيرة وأن المضمضة تنمي بعض العضلات في الوجه وتجعله مستديراً .. وهذا التمرين لم يذكره من أساتذة الرياضة إلا القليل لانصرافهم إلى العضلات الكبيرة في الجسم ولغسل الوجه واليدين إلى المرفقين والقدمين فائدة إزالة الغبار وما يحتوى عليه من الجراثيم فضلاً عن تنظيف البشرة من المواد الدهنية التي تفرزها الغدد الجلدية بالإضافة إلى إزالة العرق وقد ثبت علمياً أن الميكروبات لا

تهاجم جلد الإنسان إلا إذا أهمل نظافته .. فإن الإنسان إذا مكث فترة طويلة بدون غسل لأعضائه فإن إفرازات الجلد المختلفة من دهون وعرق تتراكم على سطح الجلد محدثة حكة شديدة وهذه الحكة بالأظافر .. التي غالبا ما تكون غير نظيفة تدخل الميكروبات إلى الجلد . كذلك فإن الإفرازات المتراكمة هي دعوة للبكتيريا كي تتكاثر وتنمو لهذا فإن الوضوء بأركانه قد سبق علم البكتريولوجيا الحديثة والعلماء الذين استعانوا بالمجهر على اكتشاف البكتيريا والفطريات التي تهاجم الجلد الذي لا يعتني صاحبه بنظافته التي تتمثل في الوضوء والغسل ومع استمرار الفحوص والدراسات .. أعطت التجارب حقائق علمية أخرى .. فقد أثبت البحث أن جلد اليدين يحمل العديد من الميكروبات التي قد تنتقل إلى الفم أو الأنف عند عدم غسلهما .. ولذلك يجب غسل اليدين جيدا عند البدء في الوضوء .. وهذا يفسر لنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا استيقظ أحدكم من نومة .. فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا) كما قد ثبت أيضا أن الدورة الدموية في الأطراف العلوية من اليدين والساعدين والأطراف السفلية من القدمين والساقين أضعف منها في الأعضاء الأخرى لبعدها عن المركز الذي هو القلب فإن غسلها مع ذلكها يقوي الدورة الدموية لهذه الأعضاء من الجسم مما يزيد في نشاط الشخص وفعاليته . ومن ذلك كله يتجلى الإعجاز العلمي في شرعية الوضوء في الإسلام.

المصدر " الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " محمد كامل عبد الصمد

غسل الوجه في الوضوء

قال الدكتور أحمد شوقي ابراهيم عضو الجمعية الطبية الملكية بلندن واستشاري الامراض الباطنية والقلب .. توصل العلماء إلى ان سقوط أشعة الضوء على الماء أثناء الوضوء يؤدي إلى انطلاق أيونات سالبة ويقلل الايونات الموجبة مما يؤدي إلى استرخاء الاعصاب والعضلات ويتخلص الجسم من ارتفاع ضغط الدم والالام العضلية وحالات القلق والأرق .. ويؤكد ذلك أحد العلماء الأمريكيين في قوله : إن للماء قوة سحرية بل إن رذاذ الماء على الوجه واليدين - يقصد الوضوء - هو أفضل وسيلة للاسترخاء وإزالة التوتر ... فسيحان الله العظيم.

المصدر : مجلة الإصلاح العدد ٢٩٦ سنة ١٩٩٤ " من ندوات جمعية الإعجاز العلمي للقرآن في القاهرة

ثبات الشخصية

ثبت في الطب الحديث أن خلايا الإنسان في الجلد والعضلات والعظام والعيون كلها تتجدد كل سبع سنوات مرة واحدة ما عدا الخلايا العصبية فلها تتوقف عن النمو للإنسان عن السنة السابعة تقريبا حيث إن ٩ / ١٠ من المخ ينمو في تلك الفترة . وإلا فلو تغيرت الخلايا العصبية لتغيرت شخصية الإنسان ولكان له عدة تصرفات في يوم واحد . وهذا من بديع صنع الله ورحمته إذ إن الله سبحانه رفع التكليف عن غير المكلف وهو الذي لم يكتمل نموه بعد .. فإذا كبر الصبي ثبتت شخصيته من خلال ثبات خلاياه العصبية التي لا تزيد ولا تنقص بسبب تلف أو مرض وإلا لتعطلت وظائفه عن الحركة .. فسيحان الله جلّت قدرته قال تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ، الا يستحق ذلك سجودا لله وشكرا ؟ بلى والله

المصدر " وفي انفسكم أفلا تبصرون " أنس بن عبد الحميد القوز

جزيرة العرب

العالم البروفسيور الفريد كوروز من أشهر علماء الجيولوجيا في العالم .. حضر مؤتمرا جيولوجيا في كلية علوم الأرض في جامعة الملك عبد العزيز .. قلت له : هل عندكم حقائق أن جزيرة العرب - أن أرض العرب - كانت بساتين وأثارا - هذه الصحراء التي ترونها كانت قبل ذلك بساتين وحقائق فقال : نعم هذه مسألة معروفة عندنا .. وحقيقة من الحقائق العلمية وعلماء الجيولوجيا يعرفونها .. لأنك إذا حفرت في أي منطقة تجد الآثار التي تدل على أن هذه الأرض كانت مروجاً وأثارا ، والأدلة كثيرة .. فقط لعلمكم منها قرية الفاو التي اكتشفت تحت رمال الربع الخالي .. وهناك أدلة كثيرة في هذا . قلت له : وهل عندك دليل على أن بلاد العرب ستعود مروجاً وأثارا ؟ .. قال هذه مسألة حقيقية ثابتة نعرفها نحن الجيولوجيون ونقيسها ونحسبها ، ونستطيع أن نقول بالتقريب حتى يكون ذلك .. وهي مسألة ليست عنكم ببعيدة وهي قريبة .. قلت : لماذا ؟ قال : لأننا درسنا تاريخ الأرض في الماضي فوجدنا أنها تمر بأحقاب متعددة من ضمن هذه الأحقاب المتعددة .. حقبة تسمى العصور الجليدية . وما معنى العصر الجليدي ؟ معناه : أن كمية من ماء البحر تتحول إلى ثلج وتتجمع في القطب المتجمد الشمالي ثم ترحف نحو الجنوب وعندما ترحف نحو الجنوب تغطي ما تحتها وتغير الطقس في الأرض ، ومن ضمن تغيير الطقس تغيير يحدث في بلاد العرب ، فيكون الطقس بارداً ، وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم أمطاراً وأثارا . وكنت أربط بين السيول والأمطار في منطقة أهما وبين تلك التي تحدث في شمال أوروبا وأنا أتأمل فيما يقول قلت له : تأكد لنا هذا قال : نعم هذه حقيقة لا مفر منها ! قلت له : اسمع من أخير محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك هذا كله مذكور في حديث رواه مسلم يقول صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأثارا) من قال لمحمد صلى الله عليه وسلم أن أرض العرب كانت مروجاً وأثارا ؟! ففكر وقال : الرومان .. فقلت له : ومن أخبره بأن أرض العرب ستعود مروجاً وأثارا .. ففكر وفكر وقال : (فيه فوق !!) وهنا قلت له : اكتب .. فكتب بخطه لقد أدهشتني الحقائق العلمية التي رأيته في القرآن والسنة ولم تتمكن من التدليل عليها إلا في الآونة الأخيرة بالطرق العلمية الحديثة وهذا يدل على أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى هذا العلم إلا بوحي علوي .. قال الزناداني : أيها الإخوة الكرام : هذا موقف الملحد الكبير الألماني وقد تضاعف شعوري بمسؤولية الأمة الإسلامية أمام دينها ، وأنا أرى قيادات العالم الكبار ما أن تقوم لهم الحقائق حتى يسلموا .. ليس فقط يسلموا بل وينشروا ويكتبوا في كتبهم دون مبالاة فقلت في نفسي : لو أن هناك عملا جادا من أمة الإسلام ومن الجامعات فلن تمر عشر سنوات إلا وثلث علماء الأرض في عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من المسلمين . والله هذا الألماني مامر بيبي وبينه سوى ساعتين ونصف ساعة حتى قال هذا كله .. وهذا عملاق من عمالقة العلم . ويكتب هذا ويقره وهذا يدل على أن هناك علما واحداً وحقيقة واحدة وإلها واحداً وأن هناك حركة وعملا من المسلمين وجد إن بيدنا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إن هذا العصر عصر خضع فيه كل شيء فيه للعلم ، ولكننا في بدايات عصر خضوع العلم للإسلام وللقرآن إنه الحق قال تعالى : (سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) سورة فصلت : ٥٣

المصدر " العلم طريق الإيمان " للشيخ عبد المجيد الزناداني

قال صلى الله عليه وسلم (ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما وقوله (المعدة بيت الداء) قد توصل العلم إلى أن السمنة من الناحية الصحية تعتبر خللا في التمثيل الغذائي وذلك يرجع إلى تراكم الشحوم أو اضطراب الغدد الصماء .. والوراثة ليس لها دور كبير في السمنة كما يعتقد البعض وقد أكدت البحوث العلمية أن للبدانة عواقب وخيمة على جسم الإنسان وقد أصدرت إحدى شركات التأمين الأمريكية إحصائية تقرر أنه كلما طالت خطوط حزام البطن قصرت خطوط العمر فالرجال الذين يزيد محيط بطونهم أكثر من محيط صدورهم يموتون بنسبة أكبر كما أثبتت البحوث أيضا أن مرض البول السكري يصيب الشخص البدن غالبا أكثر من العادي كما أن البدانة تؤثر في أجهزة الجسم وبالذات القلب حيث تحل الدهون محل بعض خلايا عضلة القلب مما يؤثر بصورة مباشرة على وظيفته وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حذر من السمنة والتخمة فقال : (المعدة بيت الداء) وحذرت تلك البحوث من استخدام العقاقير لإنقاص الوزن لما تسببه من أضرار وأشارت إلى أن العلاج الأمثل للبدانة والوقاية منها هو اتباع ما أمرنا به الله سبحانه وتعالى بعد الإسراف في تناول الطعام واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تناول الطعام كما أوضح الحديث الذي نحن بصددده ... وجاء تطبيقا لقوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) سورة الأعراف : ٣١ وبهذا سبق الاسلام العلم الحديث منذ أكثر من أربعة عشر قرنا إلى أهمية التوازن في تناول الطعام والشراب وحذر من أخطار الإسراف فيهما على صحة الإنسان

وقاية الجهاز الهضمي : قال صلى الله عليه وسلم (أصل كل داء البردة) البردة : التخمة : أخرجه الحافظ السيوطي في الجامع الصغير

هذا الحديث يعد علامة بارزة في حفظ صحة الجهاز الهضمي ، وبالتالي وقاية الجسم كله من التسمم الذاتي الذي ينشأ عن (التخمة) وامتلاء المعدة وتحميلها فوق طاقتها من الأغذية الثقيلة ، وعن تناول الغذاء ثانية قبل هضم الغذاء الأول ، الأمر الذي يحدث عسر هضم وتخمرات .. وبالتالي التهابات معدية حادة تصير مزمنة من جراء توطن الجراثيم المرضية في الأمعاء التي ترسل سمومها إلى الدورة الدموية ، فتؤثر على الجهاز العصبي والجهاز التنفسي ، وعلى الجهاز البولي الكلوي وغيره ذلك من أجهزة حيوية في الجسم ، الأمر الذي يسبب اختلال وظائفها . ومن هنا كانت المعجزة الطبية في إمكان التوصل إلى السبب الأساسي لكل داء وهو الإسراف في تناول الطعام الذي يسبب تخمة تؤدي إلى أمراض عديدة كما كشفتها البحوث الطبية الحديثة.

المصدر " الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " لمحمد كامل عبد الصمد

الوقاية من الأمراض

قال صلى الله عليه وسلم : ((غطوا الإناء وأوكثوا السقاء ، فإن في السنة ليلة يتزل فيها وباء ، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء ، أو سقاء ليس عليه وكاء ، إلا نزل فيه من ذلك الوباء)) رواه مسلم

لقد أثبت الطب الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الواضع الأول لقواعد حفظ الصحة بالاحتراز من عدوى الأوبئة والأمراض المعدية ، فقد تبين أن الأمراض المعدية تسرى في مواسم معينة من السنة ، بل إن بعضها يظهر كل عدد معين من السنوات ، وحسب نظام دقيق لا يعرف تعليله حتى الآن .. من أمثلة ذلك : أن الحصبة ، وشلل

الأطفال ، تكثر في سبتمبر وأكتوبر ، والتيفود يكثر في الصيف أما الكوليرا فإنها تأخذ دورة كل سبع سنوات ..
والجدري كل ثلاث سنين

وهذا يفسر لنا الإعجاز العلمي في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((إن في السنة ليلة يتزل فيها وباء)) .. أي أوبئة موسمية ولها أوقات معينة . كما أنه صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى أهم الطرق للوقاية من الأمراض في حديثه : ((اتقوا الذر (هو الغبار) فإن فيه النسمة (أي الميكروبات))) فمن الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة إلا بعد اكتشاف الميكروسكوب ، أن بعض الأمراض المعدية تنتقل بالرداذ عن طريق الجو المحمل بالغبار ، والمشار إليه في الحديث بالذر .. وأن الميكروب يتعلق بذرات الغبار عندما تحملها الرياح وتصل بذلك من المريض إلى السليم .. وهذه التسمية للميكروب بالنسمة هي أصح تسمية ، فقد بين - الفيروز ابادي - في قاموسه أن النسمة تطلق على أصغر حيوان ، ولا يخفى أن الميكروب متصف بالحركة والحياة .. أما تسمية الميكروب بالجرثوم فتسمية لا تنطبق على المسمى لأن جرثومة كل شيء أصله حتى ذرة الخشب وهذا من المعجزات الطبية التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من كتاب " الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية " محمد كامل عبد الصمد

